مجلة إسلامية ثقافية

رسالة النجف

العدد السادس

تموز - آب - أيلول : 2006م

جامعة النجف الأشرف للعلوم الدينية — لبنان

محتويات العدد

1	الافتتاحية	التحرير
2	مقام السيدة خولة في بعلبك	أحمد الموسوي
3	عرفان أمير المؤمنين (ع)	الشيخ إبراهيم الأنصاري الزنجاني
4	مصادر نهج البلاغة	الشيخ سليمان اليحفوفي (قده)
5	ولادة الأمير (ع) في الكعبة المشرفة	الشيخ أحمد صمادي
6	مبيت علي(ع)في فراش النبي(ص)	د. يحيى الشامي
7	أهمية العمل في الإسلام	السيد علي السيد حسين يوسف مكي
8	الزيارة الجامعة	الشيخ محمد سند
9	إطلالة على كتاب الكافي	الشيخ أمين ترمس
10	الرسالة النبوية الخاتمة	الشيخ علي ياغي
11	الدخيل في اللغة العربية	د. حسن جعفر نور الدين

الافتتاحية

التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

يتوافق صدور هذا العدد من مجلة [رسالة النجف] مع مناسبة جليلة هي ذكرى ولادة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وقد حقّ لنا أن ننعت هذه المناسبة بالجليلة، لأن ولادة علي (عليه السلام) كانت هي البرعم الذي انبثقت من تفتح وريقاته أبهى آيات الجمال وأسمى حقائق الكمال مما أذن الله تعالى في تجليّه لدى أحد من الناس، فكان الإمام علي (عليه السلام) هو الحقيقة الجامعة لذلك التجلي بكل أبعاده وبأرفع صُوَره:

ليس على الله بمستنكر	أن يجمع العالم في واحد

ولسنا الآن في صدد استقراء فضائل أمير المؤمنين، ولا مطالعة خصائص شخصيته الفذّة، وهي الشخصية التي حيّرت العقلاء فاستفاضت المدوّنات بذكر مواهبها، وكان للشرقيين والغربيين، كما للنصارى والمسلمين، مدائح وأقوال في حقها مما ندر أن يتسنّى مثلها لإنسان.

ويكفينا هنا أن نورد نماذج قليلة مما سطّره بعض العباقرة والمفكرين في هذا المجال.

يقول ابن أبي الحديد المعتزلي في إحدى قصائده التي يمدح فيها أمير المؤمنين (عليه السلام):

يا قالع الباب التي عن هزّها لولا حدوثك قلتُ إنك جاعل ا	عجزت أكفٌّ أربعون وأربعُ لأرواح في الأشباح والمستنزع

أنا في مديحك ألكنٌ لا أهتدي	وأنا الخطيب الهِّبزريُّ المصقعُ

والله لولا حيدر ما كانت ال	دنيا ولا جمع البرية مجمعُ

وإليه في يوم المعاد حسابنا	وهو الملاذ لنا غدا والمفزعُ

ورأيت دين الاعتزال وإنني	أهوى لأجلك كل من يتشيّعُ

وله أيضًا قصائد وكلمات أخرى قيّمة تبين مدى العظمة التي يراها في شخصية الإمام علي (عليه السلام).

ويقول المفكّر والأديب جبران خليل جبران:

[في عقيدتي أن ابن أبي طالب كان أول عربي لازم الروح الكلية وجاورها وسامرها، وهو أول عربي تناولت شفتاه صدى أغانيها على مسمع قوم لم يسمعوا بها من ذي قبل، فتاهوا بين مناهج بلاغته وظلمات ماضيهم، فمن أُعجب بها كان إعجابه موثوقًا بالفطرة، ومن خاصمه كان من أبناء الجاهلية].

إلى أن يقول: [مات شأن جميع الأنبياء الباصرين الذي يأتون إلى بلد ليس ببلدهم، والى قوم ليس بقومهم، في زمن ليس بزمنهم، ولكن لربك شأنًا في ذلك وهو أعلم].

وإن المجال ليضيق لو حاولنا فقط تتبّع أسماء المفكرين الذي بهرت أبصارهم الشمس العلوية، فكيف يكون الحال لو أردنا الإفاضة في نقل النصوص والكلمات؟!

ولكننا لسنا في صدد ذلك كله، وإنما أردنا أن نغتنم الفرصة لنشير إلى مدى تقصيرنا في حق هذه الشخصية الفريدة، بل في حقّ أنفسنا، وفي حق الإنسانية جمعاء، إذ إننا لم نحسن الإفادة كما هو المرجوّ من الإرث العلوي الشامخ، وهو إرث عالمي النزعة، لا يحدّه مكان ولا زمان، وإنما هو وكما يقول الأستاذ جورج جرداق معبّرًا عن تصور الأديب اللبناني الكبير ميخائيل نعيمة للإمام علي (عليه السلام): [ليس لفكر ابن أبي طالب ولروحه وبيانه حدود في زمان ومكان، فهي من العمق بحيث تتحد بحقائق ثابتة، وأصول قائمة، في بناء الخير والجمال الفنّي الممتع، وهي من الأصالة بحيث تتّصل بأركان الوجود الفكري والروحي والجمالي اتصالاً لا شك فيه].

وهذا كله هو ما حَدَا بنا في أسرة تحرير [رسالة النجف] لأن نخصّص ملف هذا العدد لأبحاث ومقالات تتناول لمحات من تراث أمير المؤمنين (عليه السلام)، علّ التظلُّلَ بأفيائه يوحي لبعض أهل البحث بالتوغّل أكثر، للاستيحاء من ذلك الفكر الخالد أنوارًا جديدة تعيننا في مواجهة التحدّيات المعاصرة وما يفرضه علينا زماننا من مشكلات.

وإضافة إلى الملف يجد القارئ الكريم تحقيقًا مقرونًا بالصور لمقام السيدة خولة في مدينة بعلبك، وهو يمثّل حلقة في سلسلةِ تحقيقات تتناول جملة من المقامات الدينية في لبنان.

والى جانب ذلك، فقد ساهم في إغناء هذا العدد مقالات قيّمة تناولت مواضيع متنوّعة. وهي ثمرة جهود علماء وباحثين أفاضل تفضّلوا بها علينا, فاقتضى منا الواجب أن نبادل كرمَهم بالشكر الجزيل.

التحرير

مقام السيدة خولة في بعلبك

أحمد الموسوي

تحقيق العدد

مقام السيدة خولة في بعلبك.. مشهد مقدّس على طريق السبايا

تحدّثنا في العدد السابق عن السياحة الدينية في المقامات المنسوبة إلى الأنبياء والأولياء، وذكرنا أنه ربما اشتهرت نسبة مقامٍ أو قبرٍ إلى أحدٍ وتعاظَمَ اهتمام المؤمنين به رغم عدم توفّر الوثائق التاريخية التي تثبت صحة هذه النسبة سوى ما يشيع على ألسن الناس مما يتناقلونه عن أسلافهم، أو الاعتماد على رؤيا لبعض الصُّلَحَاء يعدّونها شاهد صدق، محتفّة بما يلمسونه من الآثار الروحية والكرامات.

وقد كان هدف المجلة من القيام بهذه التحقيقات هو إلقاء نظرة ميدانية على هذه المقامات للفت نظر العلماء والباحثين إليها بُغية إثارة البحث والتحقيق حولها لمعرفة القيمة الدينية والتاريخية لها، حتى يتم ترشيد الاستفادة منها، إذ لا تخلو كثير من هذه المقامات من الفوائد وإن لم تثبت النسبة بشكل قطعي، شريطة وضوح الحال لمرتاديها من المؤمنين.

وإليك أيها القارئ الكريم هذا التقرير الذي نحاول فيه إلقاء الضوء على جوانب مختلفة من المقام الموجود في مدينة بعلبك، والمنسوب للسيدة خولة بنت الإمام الحسين (عليه السلام)، وذلك من خلال ما توفّر لدينا مما نعرضه بين يديك.

إلا أنّا نترك القول الفصل في بيان حال نسبته إلى أهل التحقيق، إذ لم يتوفّر لدينا أيّ مصدر توثيقي يمكننا الركون إليه، فإننا رغم البحث لم نعثر على ما يثبت أن للإمام الحسين (عليه السلام) بنتًا باسم السيدة خولة، فلعلها إحدى بنات أهل بيته، أو من الأيتام الذين كان يتعهدهم (عليه السلام) من أيتام أصحابه - كما احتمله بعض الأفاضل من علمائنا المحققين ممن راجعناهم-.







مقدمة تاريخية

لم تنتهِ واقعة كربلاء في العاشر من محرم (61هـ - 681م) باستشهاد الإمام الحسين (عليه السلام)، وقَطعُ رأسه الشريف في ذلك اليوم كان تعبيرًا أكثر حسمًا ووضوحًا عن قرار سلطة الانحراف الأموية بقطع الإسلام عن أصوله المتمثّلة بالرسول الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله)، لتتوالى من بعدُ فصول صراعٍ مرير بين نهج الانحراف ونهج العودة إلى الجذور.

ضريح السيدة خولة في بعلبك من معالم ذلك الصراع، فالسيدة خولة -والتي يشيع بين الناس أنها بنت الإمام الحسين (عليه السلام)- كانت في عِداد قافلة سبيٍ مَن تبقّى من آل البيت إثر استشهاد الإمام الحسين (عليه السلام)، تلك القافلة التي سارت بالنساء والأطفال، وبكل أنواع الإذلال والاضطهاد، من كربلاء إلى مقرّ حكم يزيد في دمشق، سالكة خط سير باتجاه شمال العراق بمحاذاة نهر الفرات لتدخل سوريا عن طريق معرّة النعمان ومنها إلى حلب فحماة فحمص، ومن ثمّ إلى مدينة بعلبك في لبنان.

وفي هذه المنطقة، وقبل مواصلة القافلة سيرها باتجاه دمشق، توفيت السيدة خولة وهي في قرابة السنة الثالثة من عمرها، فجرى دفنها في إحدى النواحي، وتمّ إخفاء معالم الضريح الشريف لاحقًا خوفًا من الاضطهاد الأموي فالعباسي الذي لاحق آل البيت بقتلهم أحياء، ونبش قبورهم وأضرحتهم أمواتًا.

ورغم إخفاء معالم الضريح المادية، إلا أن ناحية وجوده دون تحديد المكان بدقّة بقيت عالقة في النفوس وفي قلوب أنصار آل البيت وعقولهم، يتذكرونها جيلاً بعد جيل،كما يستذكرون الأنوار التي كانت تظهر فيه بين فينة وفينة من الزمن، تهبط على تلك الناحية تأكيدًا على قدسية المكان وكرامة من يضم في ترابه.

رؤيا



وفي الروايات المتناقلة على الألسن أن ملكية الأرض التي ضمّت قبرها الشريف انتقلت إلى رجل من محبي آل البيت، فرأى هذا في منامه أن طفلة تخاطبه وتطلب منه أن يحوّل ساقية ماء عن مكان محدّد في البستان لأنها مدفونة هناك، وقد تكرّر هذا الحلم في منام الرجل مرةً ثانية، إذ خاطبته الطفلة وعرّفته بشكل صريح عن نفسها بأنها خولة بنت الحسين، وطلبت منه الطلب نفسه، ثم تكرّر الحلم أكثر من مرّة، فما كان من هذا الرجل الذي احتار بالأمر إلا أن قصّ رؤاه على أحد الوجهاء من آل مرتضى، فقام هذا من ساعته مع بعض خواصّه بالحفر في المكان المشار إليه إلى أن اهتدوا إلى مكان القبر وعثروا على جسدها الشريف ولمّا يلحق به أيّ أذى بعدُ رغم تعاقب السنين منذ تاريخ الوفاة، فأخرجوه من مكانه وأزاحوه عن مجرى الماء وشيدوا فوقه قبّة صغيرة، ومنذ ذلك الحين أخذ الضريح يتحوّل إلى مقصدٍ مبارك يكثر زوّاره عامًا بعد عام من كل بلاد المسلمين.

وقد شهد المزار على مراحل متقطّعة أعمال تحسين وتوسعة قام بها الخيّرون من محبّي آل البيت.



فالمقام ببنائه القديم شيّده رجل من أولئك الأفاضل واسمه السيد حسن ابن السيد علوان، وكان قبل بدء التوسعة الجديدة عبارة عن غرفة مربعة سميكة الجدران وفي داخلها الضريح المبارك تحت صندوق خشبي مزخرف بآيات من القرآن الكريم، وقرب الضريح شجرة سرو ضخمة، تقول المرويّات أن الإمام زين العابدين قد غرس شتلتها

للاستدلال بها على المكان.



وفي عام 1970م قام نفر من المؤمنين بحملة تبرّعات من أهالي مدينة بعلبك سمحت ببناء حسينية ومصلّى بمساحة 300 متر مربع في حرم المقام، وفي العام 1997م وبمبادرة من حزب الله بدأ مشروع ضخم لتوسعة جديدة كبيرة للمقام، وليكون من أهم المعالم الإسلامية البارزة في المنطقة، لكن المشروع سار ببطء نظرًا لضخامته ولقلّة الامكانات إلى أن لقي دعمًا مباشرًا من الجمهورية الإسلامية في إيران عام 2000م، إذ بدأت تتسارع وتيرة البناء فيه، لتنتهي المرحلة الأولى منه وقد أصبح جاهزًا لاستقبال عشرات الآلاف من الزوّار، وهذه التوسعة في مرحلتها الأولى شملت الطابق الأول السفلي حيث الضريح والذي بات بإمكانه استقبال عدد كبير من الزوّار.

إذن للدخول

(باسم الله بإذن الله وإذن رسوله وأنبيائه المرسلين والأئمة المعصومين، وبإذن صاحبة هذا المقام الشريف أدخل هذه الروضة المباركة وأدعو الله بفنون الدعوات،و أعترف لله بالعبودية وللنبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة المعصومين (عليهم السلام) بالطاعة).

هذا الإذن المثبت على لوحة رخامية قرب الباب الرئيسي هو أول ما يطالعك قبل الدخول إلى القاعة الكبرى، التي تضمّ الضريح في الطابق السفلي، والذي تبلغ مساحته 1350 مترًا مربعًا، يضاف إليها ديوان استقبال ومكتبة بمساحة 150 مترًا مربعًا.

السلام



روعة البناء بجدرانه الممتدة والملبسة بالكاشي ذي الزخرفة الإيرانية الجميلة، الأعمدة المرتفعة والمتماثلة بألوانها، المرايا المعلّقة في السقف المظلّلة للقاعة كلها، استغراق المصلين في صلاتهم، انسياب القانتين في أدعيتهم، غياب المتوسلين في دموعهم، كل هذه الرهبة وكل هذا الجمال الروحي والمادي عند الدخول إلى الروضة، يمهّدان الدرب أمام القلب ليأخذك مباشرة لإلقاء السلام على صاحبة الضريح وإعلان الولاء للنبي وآل بيته (عليهم السلام)، ليرتد السلام سلامًا وطمأنينة يتيحان لك من بعدُ أن ترى وتسمع وتلحظ حولك.

قفص الضريح من الذهب والفضّة، طوله أربعة أمتار وعرضه ثلاثة، بابه من خشب السنديان المعتّق، والى أمتار عدّة منه تخترق شجرة السرو العملاقة سقف المبنى الأول من المقام لترتفع عالية في السماء.

أما الطابق العلوي الذي لا يزال قيد الإنشاء، فيُعمل على إعداده ليكون مصلى بمساحة 800 متر مربع، على أن تُستكمل المرحلة الثانية من أعمال التوسعة بإضافة حسينية بمساحة 3000 متر مربع لاستيعاب الزوّار في المناسبات الدينية الكبرى كأيام عاشوراء وليالي شهر رمضان المبارك.

ووفق ما يقول المشرف على متابعة تنفيذ أعمال التوسعة الجديدة الحاج حسين نصر الله فإنه في يوم العاشر من المحرم يستقبل المقام قرابة مائة ألف من المؤمنين الذين يتجمّعون للانطلاق منه في مسيرة عاشوراء، كما يستقبل الآلاف يوميًا لإحياء شعائر هذه المناسبة التي تستمرّ أربعين يومًا، وكذلك الأمر عند إحياء ليالي القدر من شهر رمضان المبارك وإحياء المناسبات الجليلة الأخرى كيوم استشهاد السيدة الزهراء (عليها السلام)، إضافة إلى ما يقام فيه من محاضرات وندوات ومعارض إسلامية وفنيّة.



أما بالنسبة إلى الزوّار من خارج لبنان، فيقول الحاج نصر الله: إن زوّار المقام يتوافدون من مختلف الأقطار الإسلامية وبشكل خاص من إيران وباكستان والهند وبنغلادش ودول الخليج العربي، والزيارات لا تنقطع على مدار السنة، لكنها تكون كثيفة أيام الصيف إذ يقدّر عدد من يزور المقام من خارج لبنان حوالى مائة ألف زائر يأتون للزيارة والتبرّك، والتوسّل إلى الله والدعاء لقضاء الحوائج.

كرامة إلهية

أهالي منطقة بعلبك يعتبرون وجود مقام السيدة خولة على مدخل المدينة من الكرامات الإلهية التي منّ الله بها عليهم. يتبرّكون ويتوسّلون به إلى الله تعالى، ويعدّونه امتدادًا للمشاهد المقدّسة في مكة المكرمة والمدينة المنوّرة والنجف الأشرف وكربلاء وقم ومشهد ودمشق... حيث مدافن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) والأئمة المعصومين (عليهم السلام) ومن كان معهم أو سار على ولايتهم من الأولياء والصالحين.

إن مسيرة السبي بعد واقعة كربلاء لم تترك هذا المَعلَم فقط على طريق عذابات وآلام السبايا قبل وصولهم إلى الشام، فعلى طول الطريق الممتدة تركت الرحلة آثارًا مقدّسة لآل بيت النبوة، سواء في أرض العراق أو سوريا أو لبنان حيث يوجد أيضًا في منطقة بعلبك أثر آخر مبارك وهو المكان الذي وضع فيه رأس الحسين الشريف عند وصول السبايا إلى المنطقة، وهذا المكان بني عليه لاحقًا مسجد يُعرف حتى اليوم باسم "مسجد ومشهد رأس الإمام الحسين (عليه السلام)"، وقصة بناء هذا المسجد تروي أن قافلة السبايا حين وصلت إلى هذا المكان ثار بعض المؤمنين المحبين لآل البيت على الجنود الأمويين الذين يحرسون القافلة في محاولة منهم لفك أسر السبايا وتخليص رأس الحسين الشريف من أيديهم، وهذا المسجد لم يبق منه اليوم سوى آثار خربة.

ضريح مقدّس وسروة أمينة



كان الرحّالة الإنكليزي الشهير "روبرت وود" قد ترك وثيقة مميزة تعتمد الصورة، فقد رسم الضريح الشريف عام 1757م أثناء زيارة قام بها إلى المنطقة، وقد ظهر الضريح فيها واضحًا وخلفه أعمدة بعلبك وهياكلها الرومانية، واللافت في هذا الرسم شجرة السرو التي انتصبت إلى جانب الضريح، وهي الشجرة التي تقول المرويات الشعبية المأثورة أن الإمام زين العابدين (عليه السلام) قد زرعها، وهذه الشجرة لا تزال قائمة حتى اليوم كحارس أمين للدلالة على مكان الضريح.

وقد أورد الرحالة "وود" هذا الرسم في أحد أشهر كتبه وهو بعنوان: "The kuins Of Bualbek".

بناء القبور

ومسألة بناء قبور الأولياء والصالحين وتشييدها وتعظيمها - كما يقول مقدّم كتاب المزار للشهيد الأول([1]) -: "كانت مألوفة عند الأمم السابقة، فكتب التراجم والتاريخ تخبرنا بأن العديد من القبور قد اتخذت أماكن يتبرّك بها، بل إن القرآن المجيد يحدّثنا عن قصة أصحاب الكهف وأن الذين غلبوا على أمرهم قالوا **{لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً}**([2])، فإذا كان تجليل أصحاب الكهف وغيرهم لأنهم آيات الله، فتجليل وتعظيم آل النبي (صلى الله عليه وآله) أولى وأوجب لأنهم أعلام آيات الله وأنهم الذين اختُصوا بالعصمة وبانتمائهم وانتسابهم إليه (صلى الله عليه وآله)".

ويضيف: " إن التوسّل والخضوع والتواضع أمام العتبات المقدسة التي يضم ثراها نبيًا أو معصومًا أو وليًا من الصالحين هو في حقيقته توسل وخضوع وتواضع للخالق تبارك وتعالى، وليسوا هم إلا وسيلة كالصلاة والصوم وبقية العبادات والطاعات التي يُتوسل بها إليه تعالى امتثالاً لقوله عز وجل **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}**([3])".



مزار السيدة خولة عليها السلام كما رسمه الرحالة الإنكليزي Robert Wood عام 1757 في كتاب The Ruins of Baalbek

---

[1] - السيد محمد باقر الأبطحي الأصفهاني، في مقدمته على كتاب المزار للشهيد الأول، ط1، 1410هـ، قم، ص2-3.

[2] - سورة الكهف: من الآية21

[3] - سورة المائدة:35

عرفان أمير المؤمنين (ع)

الشيخ إبراهيم الأنصاري الزنجاني

عرفان أمير المؤمنين (عليه السلام)

الشيخ إبراهيم الأنصاريالخوئيني الزنجاني *

مقدمة: العرفان ضرورة دينية

اتفق الشيعة والسنة وغيرهما على نقل حديث عن الإمام الرضا (عليه السلام)، وهو قوله (عليه السلام): (الإيمان اعتقاد بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان)([1]).

ومضمونه متفق عليه، لأن الإسلام - كما في آيات كثيرة - دعا إلى (الإيمان والعمل والصالح)، واللسان مثل بقية الأعضاء، له نصيب من العمل، صالحًا كان أو فاسدًا، كما أن من المسلّم طلب تكميل كلّ من الجهات الثلاث من المرتبة الضعيفة إلى أعلى المراتب، وتكميل مراتب الاعتقاد يسمى بـ(العرفان).

وتكميل مراتب الاعتقاد له شُعبتان: (إحداهما) ترجع إلى العقل والنظر، (والثانية) إلى القلب والعواطف.

فالأولى اصطلحوا عليها بـ(علم الكلام)، والثانية بـ(علم العرفان).

وبتعبير آخر: العلم المتكفل لباطن الإنسان ومقاماته الغيبية يسمى بالعرفان، وحيث إن هذا عطش فطري موجود عند كل إنسان، فلذا لم يوجد دين سماوي أو أرضي إلا وفيه فرقة تدعو إلى العرفان، سواء في اليهودية أو المسيحية أو المجوسية أو الإسلام، أو في البوذية والهندوسية والكونفوشيوسية وغيرها.

ولكن هناك نكتة تجب الإشارة إليها، وهي:

أن كل حقيقة واقعية كما يوجد جَمْعٌ يتبنّونها بعنوان أنها حقيقة دينية، كذلك يوجد جمع يتّخذونها وسيلةً للمال أو الجاه أو ما شابه ذلك.

ولتمييز حقّها من باطلها، والمدّعِي لها حقًا عن المدّعِي لها رياءً ونفاقًا، معاييرٌ وموازين، لسنا في مقام بيان تفاصيلها، بل نريد الاكتفاء، بل الالتجاء إلى باب مدينة العلم والعرفان، إلى من هو ميزان الحقّ والباطل في كل ما يمكن أن يتّصف بهما، وهو إمام المتقين وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام).

ولا يمكننا التعرض لجميع جوانب عرفانه (عليه السلام)، بل نشير إلى نموذج منه، ولعله هو (عليه السلام) يجعله بابًا يفتح منه ألف باب:

1- التوحيد العرفاني

إن العرفان الصوفي يعتبر أن كمال توحيده تعالى الذي يسمونه (توحيد أخص الخواص) والمبالغة في تعظيم شانه ونفي الشريك عنه بالكليّة يقتضي إنكار حقائق الموجودات، وادعاء كونها جميعًا موجوداتٍ خيالية وهمية:

كل ما في الكون وهم أو خيال	أو عكوس في المرايا أو ظلال [2]

ويتهمون الاعتراف بحقائق واقعية غير الله تعالى - كما يقوله المتكلمون والفلاسفة المخالفون للصوفية - بكونه خروجًا عن التوحيد الخالص، بل داخلاً في الشرك بالنسبة إلى الواصلين بمرتبة التوحيد (أخص الخواص)، وإن كان مقبولاً من أهل المراتب الأخرى العاجزين القاصرين عن الوصول لتلك المرتبة، فهم يفتخرون ويتبجحون بالوصول إلى مرتبة لا يرون فيها موجودًا حقيقيًا غير الله تعالى، بخلاف بقية مراتب التوحيد، فإن أصحابها يتخيلون أن موجودات العالم كلها حقائق خارجية.

والحقّ أن ما استندوا إليه في موارد كثيرة من صريح كلامهم لإثبات هذه الدعوى صحيح، وهو أن المخلوقات بشراشر وجودها وكمون ذاتها وصفاتها لا تملك شيئًا إلا من الله حدوثًا وبقاء، فلا يتصور أن يستغنوا عنه تعالى، بل هم دائمًا محتاجون في جميع شؤونهم إلى باريهم.

وهذا أمر متفق عليه لا يجهله العوام فضلاً عن الخواص، ومجرد اتخاذه شعارًا وتكراره في الأشعار واللسان والقلم لا يدل على كون من ينادي به أشدّ علمًا أو إخلاصًا واعتقادًا به من غيره.

ولكن هذا المعنى لا يُثبت ما ادعوه من خيالية العالم وكون الموجودات بأجمعها موهومات، بل نقول إن الأمر بالعكس، لأن الاعتراف بعالم واقعيٍّ وموجودات حقيقية من سماء وأرض، وإنسان وحيوان، وجبال وبحار، ونجوم ومجرّات، وبالكرسي الذي وسع السماوات والأرض، وباللوح والقلم، والعرش العظيم، وعالم النور وما فيه، مما لا يعلمه إلا الذين هبطوا من ذلك العالم واطّلعوا عليه من المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، إن الاعتراف بواقعية كل هذه المخلوقات أدلّ على عظمة خالقها وتوحيده من الاعتراف بربّ خلق موجودات وهمية ويحكم حكومة وهمية.

إذ لا ريب أن الإنسان يخلق في ذهنه موجودات وهمية ويصنع بقوّة الخيال سماوات وأرضين ومجرات وغير ذلك مما يحاكي المخلوقات التي خلقها الله تعالى.

فلو كانت مخلوقاته تعالى أيضًا وهمًا وخيالاً لا واقع له بل **{كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ}**([3])، كما يفسّرونها به، فما الفرق بينه تعالى وبين عبيده؟!

ومنشأ المغالطة أنهم توهموا أنّه كلما بالغنا في تنزيل شأن المخلوق فقد رفعنا بالمقدار عينه من شأن الخالق، وكلما رفعنا من شأن المخلوقات واعترفنا بوجودها الحقيقي وبعظمة بعضها فقد نزّلنا من شأن خالقها، وجعلناها بمنزلة النّد والشريك لله تعالى، وابتعدنا عن التوحيد الخالص، ووقعنا في الشرك الخفي حقيقة، أو في نظر الواصلين إلى هذه المرتبة.

والحق أن هذا خلاف العقل والفطرة، فإن خالق الأمر الواقعي العظيم أولى بنفي الشريك عنه، فإن اعتقادنا أنه تعالى خالق سماوات واقعية ومجرات، وعرش وكرسي، وأرض، وإنسان وجنّ، وملائكة حقيقية، مع كون أزمّة جميع الأمور بيده، أدل على عظمة الخالق وأبلغ في الإخلاص والتوحيد من الاعتقاد بإله خالقٍ لسماوات وهمية وأرض وإنسان وجنّ وملك وعرش وكرسي خيالية، لا مادة لها ولا حقيقة، بل كلها مثل خيالات ذهننا وأوهامه، أو مثل صور المرآة وظلال الأجسام.

فالحق ما ذهب إليه المتكلمون والفلاسفة العقليون، من أن كمال التوحيد يقتضي الاعتقاد بكون الموجودات حقائق، فإن ترفيع شأنها ترفيع لشأن خالقها وإخلاص في توحيده.

2- العرفان والحلول والاتحاد

العرفان العلَوي يركّز على نفي كل نوع من الاتحاد والحلول ونحوهما، فضلاً عن الوحدة، فلا وجوده القدوس يليق بأن نراه في ضمن الكثرة بعد خلق الموجودات، كما أن صدور الوجود المنبسط - على اصطلاحهم-، وسريان الوجود الكلي، لا يقتضيان وحدته تعالى وسريانه في المخلوقات (الوحدة والكثرة)، ولا خالقيته تعالى من سنخ صدور شيء عن شيء، ليكون مقتضى قانون (فاقد الشيء لا يكون معطيًا له)، هو أن صدور الموجودات منه دليل على انطوائها في ذاته تعالى بعنوان (الكثرة والوحدة)، بل خلقه تعالى للأشياء من العدم المهيأ بعيد عن قانون (إن المعطي للشيء يجب أن يكون واجدًا له)، فلا صدور ولا انطواء (لم يلد)، بل خلقٌ وإيجاد من العدم، كما أن قانون (كن فيكون) يبطل حلوله في خلقه وسريانه فيه على ما هو مقتضى قانون (الوحدة والكثرة) فليست نسبة وجوده إلى الموجودات من سنخ انطوائه فيها واحتوائها إياه، فلا يصح فرض مجموعة واقعية مشتملة عليه تعالى كما في العرفان المنحرف.

وهذا من أهم الفروق بين عرفان أمير المؤمنين (عليه السلام) وعرفان المدّعين بأن الخالق هو المخلوق،وأن العبودية جوهرة كنهها الربوبية، بل القرآن والحديث وبالخصوص عرفان أمير المؤمنين (عليه السلام) يركّز على نفي جميع أنواع الوحدة والاتحاد والسريان وغيرها، فيقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (أنت المولى وأنا العبد... وأنت المالك وأنا المملوك... وأنت العزيز وأنا الذليل... أنت الخالق وأنا المخلوق... وأنت العظيم وأنا الحقير... وأنت الغني وأنا الفقير... أنت الباقي وأنا الفاني... وأنت الربّ وأنا المربوب...)، فكل من هذه الكلمات تثبت المباينة في عين الحضور وعدم الاتحاد في عين الإحاطة والشهود.

3- رُبَّ عارفٍ يعبد نفسه

العارف في العرفان المصطلح يجعل اتصافه بهذه الصفات هدفًا، فيعبد الله لأمور روحية من صفاء ومكاشفة وكشف حجب وغير ذلك من أهدافٍ ترجع إلى روحه، كما أن بعض المثقفين يعلّلون الدين بأهداف مادية جسمانية من تقوية البدن وسلامة الأعصاب وتنظيم حركات القلب، وكلاهما يعبدان أنفسهما: هذا يعبد جسمه، وذاك روحه.

وأما العرفان العلَوي، فإنه يركّز على التعبد، فلا يعبد الله لشيء يرجع إلى جسمه، ولا لشيء يرجع إلى روحه، بل تعبّدًا بأمره ونهيه، كما هو مقتضى العبودية وطريقة المتكلمين والفقهاء.

4- تعميم العرفان وابتذاله

لا إشكال أن من جملة طرق محاربة أيّ حقيقة والتقليل من شأنها، هو تعميمها وبذلها لمن ليس أهلاً لها، كما لو فرضنا أنّا أطلقنا كلمة (آية الله العظمى) على كل معمّم عنده شيء من العلم، فإنه لا يرفع من شأنهم شيئًا، وإنما ينزّل من قيمة هذه الكلمة، وكذا لو فرضنا أن كل من ورد إلى الحوزة العلمية بدأ بتدريس الكفاية أو حضر في درسها أو حضر درس الخارج، فإنه يسقط قدر هذه الأمور ولا يرفع من قدر نفسه.

ومن هذا الباب نرى أمير المؤمنين (عليه السلام) مع كثرة الأدعية والخطب الواردة عنه، قد قلّل من النكات التي تعدّ من الرموز والإشارات العرفانية في كلماته، حتى أن بعضهم جمعها على زعمه في كتاب مستقل، ومع ذلك لم يجد شيئًا معتدًا به، رغم أنه تمسّك: بكل ما فيه شيء من مشتقات (عرف، يعرف)، حتى العبارات التي فيها ردّ صريح للعرفان المصطلح.

وكذلك سائر أئمتنا (عليهم السلام)، فإن كلامهم إما مباين لمباني العرفان المصطلح، أو غير متعرّض له.

وهذا دليل على أنهم نظروا إلى العرفان - أي ما كان مقبولاً عندهم - نظرة الاحترام، فضنوا به عن غير أهله، ومنعوا من تعميمه والحط من كرامته، على خلاف العرفان المصطلح الذي يسعى أهله في تعميمه وابتذاله.

5- تبديل الوسيلة إلى غاية

التأمل في القرآن وكلمات أمير المؤمنين (عليه السلام) يفيد أنه لم يكن ينظر إلى الحب والودّ والتوكّل بنظرة استقلالية وصفتية، كما في القطع الموضوعي، بل بنظرة مرآتية بحيث لا يرى إلا المحبوب والربّ وجلاله وجماله وكماله، فلا ترى في كلماته التركيز على نفس هذه الصفات إلا قليلاً.

بخلاف العرفان المصطلح، فإنه ينظر إلى هذه الصفات بنظر استقلالي، فيركّز على صفة الحب والفناء والعشق والتيه وغير ذلك، أكثر من ذكر المحبوب والمعشوق و... المفني فيه.

6- الأنانية العرفانية

العرفان العلَوي يستغرق في وصف كمال المحبوب وجماله جلاله، ويسترسل فيه كما في دعاء الافتتاح، وكميل، والصباح، وغيرها، ولا يلتفت إلى نفس الداعي إلا أحيانًا قليلة، بخلاف العرفان المصطلح، فإنه يغلب فيه مدح نفسه أو جماعته بعنوان (أنا أو نحن) ويسترسل في أنه عاشق أو فانٍ أو تايه، أو واله، أو ما شابه ذلك، أكثر من توجّهه إلى ربّه.

والفرق بين العرفانَين هو أن النظر في العرفان العلوي يركز على الصفة أو متعلَّقها، بينما في العرفان المصطلح ينظر إلى الموصوف المدّعي لصفة العشق ونحوه، أو المعشوق والمحبوب وما شابه، وربما يوجّهون عملهم عن طريق وحدة العاشق والمعشوق، والفاني والمفني فيه، وفيه ما فيه...

7- المفاهيم أو الحقايق

إن المدعين للعرفان المصطلح يهمّهم علم العرفان والخوض في مفاهيمه والعناوين المطروحة فيه بالحمل الأولي، أعني مفهوم الحب والتيه والفناء وما شابه ذلك، حتى أنهم يرون القدرة على تصوّرها وفهم مراتبها دليلاً على الوصول إلى واقعها، وربما تساعدهم قوّة الخيال بأن يعتقدوا لأنفسهم ذلك.

وهذا بخلاف العرفان العلَوي، فإنه يسعى لتحصيل واقع هذه الصفات بالحمل الشايع ولا يقدر الشيطان ولا قوّة الخيال على تلبيس الأمر عليهم حتى يتخيّلوا الوصول إلى بعض هذه المراتب بمجرد قدرتهم على تصوّرها.

---

[1] - راجع وسائل الشيعة (آل البيت): 15/329، ب46 من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، ح33. وهي مروية عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أيضًا، راجع نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، دار الوفاء، بيروت: 4/50، خطبة رقم 227. وراجع سنن ابن ماجة. محمد بن يزيد القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي،دار الفكر - بيروت، ج1 ص26.

[2] - البيت مطلع غزل للعارف عبد الرحمن الجامي في ديوانه، راجع تفسير آيات القرآن الكريم للسيد مصطفى الخميني، الطبعة الأولى 1418 هـ، مؤسسة العروج: 1/ 131.

[3] - سورة النور: من الآية39.

الهوامش

* أستاذ العقائد في الحوزة العلمية في قمّ المشرفة.

مصادر نهج البلاغة

الشيخ سليمان اليحفوفي (قده)

مصادر نهج البلاغة([1])

الشيخ سليمان اليحفوفي (قدس سره)*

تمهيد البحث

ما خطر لي في يوم من الأيام أن أقف مستدلاً على نسبة نهج البلاغة للإمام علي (عليه السلام)، كما لم يخطر لي في بالٍ أن أستدلّ على أن القرآن هو كلام الله سبحانه. ولكن بدء وقوع الفِتن أهواءٌ تتبّع وآراءٌ تُبتدع، يتولّى فيها قوم قومًا، فيُمزج قليل من الحقّ مع كثير من الباطل فيأتيان معًا، هناك يضلّ مُرتاب ويُعاني محق.

لقد هوّن عليّ حَرَاجة الموقف أن الشُبهات والشُكوك أقدم تاريخًا من حياة الإنسان على الأرض. بل من المؤكّد أن الإيذان بخلقه سبّب أول شبهة: **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}**([2]). فتولد لديهم شبهة وهي كيف يجوز جعل خليفة في الأرض يفسد فيها ويسفك الدماء؟

ولعلّهم كانوا يحدّثون أنفسهم بأنهم أولى بهذا المنصب لاستمرارهم في الطاعة والعبادة، وقد ظهر هذا المعنى على ألسنتهم إذ **{قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ}**([3])فينبغي أن نكون أولى من هذا الخليفة.

فكان لا بدّ من تخلّي الحقّ من الباطل لترتفع الشبهة، **{وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا}**([4])، فتقهقر الباطل وزهق، وظهر الحقّ، **{فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إلا إبليس}**([5]). وقد غاظه ظهور الحقّ، وامتنع عن السجود متلبسًا بشبهة جديدة، وهي ادّعاء مزيد فضلٍ لنفسه على المسجود له، ولا يصحّ سجود الفاضل للمفضول، وتتضح الصورة في هذا الحوار: **{قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}** ([6]).

فشبهة إبليس كانت في "الأفضلية"، ثم لُبّس على آدم في شبهة سرّ المُلك والخلود،**{فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ}**([7]).

ولكن أبناء آدم أوغلوا في الشبهات حتى شكّوا فيما لم يَشُكَّ إبليس نفسه به، فطالت شُبهاتهم السّاحة القدسية، فقالوا لرسلهم **{وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** ([8]).

هذه الشبهات هوّنت عليّ كثيرًا ما أنا فيه، فالشبهة تبدأ صغيرة وربما من واحدٍ فقط، ثم تكبُر وتنمو حتى تشلّ عقولاً كبيرة، وتحتاج في دفعها إلى أسفارٍ ضخمة، كلّما دُفعت من جانب تَفتّقت من آخر، وكأنها جزء من كيان الإنسان، كيف لا وأصالتها ترتبط بتاريخ حياته؟!

وهوّن عليّ كثيرًا أن أقف لأُثبت كلامًا لصاحبه بدون دعوى ولا مدّع، فلِمَن أُثبت وضدّ مَنْ؟ وليس أمامي سوى المُقِرّ والمُقَرّ له.

أأقول للمُقِرّ: إقرارك غير مقبول؟ وهو من أكابر أهل عصره ونقيب زمانه، والذي يقول فيه "زكي مبارك": أما ضمير الشريف فهو عندي فوق الشبهات، وأما اتهامه بالكذب على أمير المؤمنين في سبيل النزعة المذهبية فهو اتهام مردود، ولا يقبله إلا من يجهل أخلاق الشريف([9]).

أم أقول للمقرّ له هذا ليس منك؟ وهو باب العلم الذي منه يؤتى!

ولكنّ الخطب يَهون عندما نُجيل الفكر في ملكوت السماوات والأرض فنستقرئ قصة الإنسان مع خالقه، لنجد الخالق المبدع قد خصّص قسمًا كبيرًا من وَحيه ليبطل شبهات مخلوقه، ولينبهه على فسادها وسوء عاقبتها فيقول سبحانه: **{وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا}**([10]).

لأن اتباع الأهواء يُفسد الكون ويَذهب بتوازن الموجودات ويُخلّ بتماسكها، حيث إن للكون سُنّة، ويسير بموجب فطرة تتأثّر عن بلوغ غايتها بتدخّل الأهواء، ولعلّ التعبير القرآني الكريم عن هذه الحال واضح جدًا بقوله: **{وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ}**([11]).

فاتّباع الشّبهة أساس كلّ فساد في الأرض، وإثارتها إنما نَبع من زَيغ القلوب عن الحقّ ابتغاء الفتنة والنفع القريب.

ومما يهوّن الخطب أكثر بأن الشّبهة هي المائز بين الهُدى والضّلال، "وإنما سُميت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحقّ" على حدّ تعبيركَ سيدي الإمام([12])، والتخلّص منها هو الحدّ الفاصل بين الإيمان والكفر.

فأما أولياء الله فَضِياؤهم فيها اليقين ودليلهم سَمت الهدى، وأما أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال ودليلهم العمى.

وخفّف عني ما كنت أقاسيه من ضيق في نفسي وصعوبة في موقفي، أني وجدت الشّبهات لا تُحاك إلا حول العظماء، بل هي دليل عظمتهم، ولولاها لما تنامت حولهم الشبهات.

فأول شبهة انطلقت كانت تستهدف أول خليفة بشرية له سبحانه وتعالى في الأرض، وتنامت حتى نالت ساحته القدسية، ومع ذاك لم ينتقم - وهو القادر على كل شيء - بل بَسَط العالم من عظيم رحمته ووَسَّعَ بابها، ونزّه نفسه عن الشبهات والولد والشريك، وأثبت نسبه بقوله: **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}**([13])، ونفى كل الشُّبَه التي لا تليق بجلاله وكماله مما ألصقوه به وشبّهوه فقال: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}**([14]).

عندها طابت نفسي، إذ وجدت أن استهدافَ عظيمٍ في الشبهات إنما هو دليل عظمته، فلولا عظمتك سيدي لم تستهدفك الشُّبَه.

وعظمتك لا تحتاج إلى دليل، بل أنت الدليل عليها، فهي بك تقاس وإليك تنتمي.

فقد عمل أعداؤك ما يستطيعون غير مكتفين بإثارة الشُّبَه حولَك لإطفاء نورك. وخَنَس([15])أولياؤك ومحبّوك لعدم الحَول والطَّول، وبقِيْتَ تتلألأُ في عَليائك مع كل ما كادوا وما جهدوا.

يكفيكَ عظمةً أنكَ ميزان أعمال البشر، فمن هلك فقد هلك فيك ومن نجا فقد نجا فيك.

فلو لم تكن مقياسًا للعظمة، فكيف يهلك من غالى في حبك؟ أو قلى في بغضك؟ أليس معنى ذلك أنك المقياس؟ فمن زاد أو نقّص فقد هلك؟

منذ أربعة عشر قرنًا وهم يحيكون الشّبهات حول نهجك، فيزداد وضوحًا وانتشارًا، ويتبين أنه جزء من فصاحتك وبلاغتك وعلمك ويظهر لك نهوجًا للفصاحة والبلاغة والكلام.

أرادوا التشكيك في نسبته إليك، فكشفوا لك عن أضعافه.

وأرادوا أن يعارضوك فأصبحوا يقتبسون منك، وأن يجاروك فعادوا كلّاً عليك وأمثلة ذلك أكثر من أن تُعد.

فعبد الحميد الكاتب يقول: (حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع ففاضت ثم فاضت)([16]).

وابن نباتة يقول: (حفظت من الخطابة كنزًا لا يزيده الإنفاق إلا سَعَة وكثرة، حفظت مائة فصل من مواعظ علي بن أبي طالب)([17]).

ولو أردت أن أقول كل ما قيل فيك من أعالي الكلام لنفد مدادي مهما بلغ مدده، لأن قومًا أرادوا أن يثيروا شبهة في انتساب نهجك إليك فظهر لك مناهج، ولم يبلغوا كل نهوجك، ويكفيني أن أنقل ما قيل في كلامك: أنه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق، **{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ}**([18]).

حاولوا فعجزوا، فَزَاغت قلوبهم فرموك بالشُّبَه فسطع نورك على ما خفي عليهم من بلاغتك.

وإذا أراد الله نشرَ فضيلةٍ	طُويت أتَاحَ لها لسانَ حَسودِ

يتبع =

---

[1] - أعدّ الكاتب هذا البحث بناء على طلب من مؤتمر نهج البلاغة العالمي الرابع الذي انعقد في طهران بتاريخ 13 رجب 1404 الموافق 1984م، وقد قامت المجلة ببعض التنقيحات الضرورية.

[2] - سورة البقرة من الآية30.

[3] - سورة البقرة من الآية30.

[4] - سورة البقرة من الآية 31.

[5] - سورة الحجر من الآية: 30-31.

[6] - سورة الأعراف:12

[7] - سورة الأعراف:20

[8] - سورة إبراهيم، من الآية:9-10.

[9] - عبقرية الشريف الرضي ص 223-224.

[10] - سورة المائدة، من الآية 77.

[11] - سورة المؤمنون، من الآية 71.

[12] - شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، دار إحياء الكتب العربية: خطبة 38، 2 /298.

[13] - سورة التوحيد: الآية1.

[14] - سورة الشورى: من الآية11

[15] - خنس: أي تأخر

[16] - شرح النهج، ابن أبي الحديد، 1 /24.

[17] - نفس المصدر السابق.

[18] - سورة يونس، من الآية 38.

تتمة مقال = مصادر نهج البلاغة

مقام نهج البلاغة

قبل أكثر من ثلاثين سنة، كان أحد أساتذتنا في الكلية يشرح نظرية كروية الأرض ودورانها، وتعرّض للأطوار التي مرّت على علماء الطبيعة، والاضطهاد الذي لاقوه من محاكم التفتيش من القتل والتشريد والتحريق الذي أصابهم ثمنًا لعلمهم واكتشافاتهم.

وسادت لدينا - كطلاب - عقيدةُ تخلّف الدين وعدم صلاحيته لمسايرة العصر، وهكذا كانت عقيدة كثير من طلاب المدارس والجامعات نتيجة تلقيهم المعلومات الناقصة.

وكان من نعم الله الخفية عليَّ أنني ذهبت في السنة الثانية بعد تلقّي هذه المعلومات لدراسة العلوم الدينية في النجف الأشرف، وكانت مفاجأة نادرة جدًا بالنسبة لرفاقي سوى أحدهم إذ قال: (ستفوقنا جميعًا ببلاغتك لأنك ستقرأ القرآن ونهج البلاغة).

ارتسمت كلماته في نفسي، وأكببت على نهج البلاغة لكونه أسهل من القرآن، وبدَّلَت معلوماتي هذه القطعةُ من الخطبة 186:

(وأنشأ الأرض فامسكها من غير اشتغال، وأرساها على غير قرار، وأقامها بغير قوائم، ورفعها بغير دعائم، وحصّنها من الأود والاعوجاج ومنعها من التهافت والانفراج)

فعجبت لهذه الكلمات القِصار كيف تُلخّص قانون الجاذبية وعمل الإلكترون والبروتون وأحدث النظريات العلمية التي ذهب ضحية القول بها عشرات العلماء والمفكرين.

فالدين إذن ليس متخلّفًا كما أُوحي إلينا، ولكن المستغلّين له هم المتخلفون، فلو أن صاحب نهج البلاغة جاهَرَ بنظرياته وشرَحها شرحًا علميًا مفصلاً لأولئك المتخلّفين بعده بعشرة قرون، لأعدموه مرارًا وأحرقوه تكرارًا، وذرّوه رمادًا في كل بقاع الدنيا حتى لا يُعْثَر منه على أثر.

ووجدت من العلوم في نهج البلاغة أمورًا علمية لم أفهمها حتى اليوم، وإني أنتظر الوجه الذي يكشف عنها الأستار.

كان صاحب النهج (عليه السلام) يعلم بأنه لو كاشف بنظرياته مكاشفةً واضحة لاختلّ وجه زمانه ولاستحل رجالٌ مسلمون دَمَه، يَرَون أبسط ما يأتيه بُهتانًا.

وفي ذلك يقول: (بل اندمجت على مكنون علم لو بحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة ([19]).

ويوضّح مُلغزًا: (لكنها لهجة غبتم عنها ولم تكونوا من أهلها، ويلُمّه كيلا بغير ثمن لو كان له وعاء، ولتعلمن نبأه بعد حين)([20]).

وهكذا نراه يتخفى بعلمه، فلا يظهر منه إلا ما تقبله مفاهيم زمانه فيحفظ بذلك العلم وأهله، ولولا ذلك لكان كل ما أصاب العلماء من محاكم التفتيش لا يعدو أن يكون جزءًا يسيرًا مما يستحق بنظرهم. انظر إليه كيف يلغز بعلمه فلا يخون العلم ولا يعرّض نفسه:

(والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شأنه لفعلت، ولكن أخاف أن تكفروا فيَّ برسول الله صلى الله عليه وآله. ألا وإني مُفضيه إلى الخاصة ممن يُؤمن ذلك منه، والذي بعثه بالحق واصطفاه على الخلق ما أنطِق إلا صادقًا. وقد عَهِدَ إليّ بذلك كله، وبِمَهْلِك من يَهلك ومَنجى من ينجو، ومآل هذا الأمر. وما أبقى شيئًا يمرّ على رأسي إلا أفرغه في أذني وأفضى به إليّ)([21]).

وعندما يتسرّب منه بعض التفاصيل ويستعظمها السامعون، يبادر ليصحّح لهم معلوماتهم حتى لا ينقلب العلم إلى خلاف غَرَضَه، ويضلّ أُناس بدل أن يهتدوا، فلذلك أجاب من قال له: لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب، بقوله: (ليس هو بعلم غيب، وإنما هو تعلّم من ذي علم)([22]).

وانتصب نهج البلاغة أمام ناظري، قرآن البشرية الناطق، ومترجم كتاب الله المجيد، وموضّح مبهماته ومفسّر مُشكلاته، كاشف أسراره وكاتم ما لم تستطع البشرية احتماله من أخباره، وهكذا هو في نظر جميع الناس.

وأصبحت كلما أريد أن أكتب أو أخطب أو أفكّر، أجدني إما مقتبسًا نصًا أو معالجًا فكرة، أو كاتبًا قطعًا من أفكارِ ونصوصِ ووحي نهج البلاغة.

حتى دفاعي عنه في نسبته لا أجد نفسي إلا تعالج وحيًا كامنًا فيها من نهج البلاغة، وعند استقصائي وجدت أكثر الكُتّاب والأدباء والشعراء على هذا المنوال.

يقول ابن أبي الحديد في مقدمة شرحه:

(وما أقول في رجل تُعزى إليه كل فضيلة، وتنتهي إليه كل فرقة، وتتجاذبه كل طائفة، فهو رئيس الفضائل وينبوعها، وأبو عذرها، وسابق مضمارها، ومجلي حلبتها، كل من بزغ فيها بعده فمنه أخذ، وله اقتفى، وعلى مثاله احتذى)([23]).

وقال الشيخ ناصيف اليازجي في وصيته لولده إبراهيم:

(إذا شئت أن تفوق أقرانك في العلم والأدب، وصناعة الإنشاء، فعليك بحفظ القرآن ونهج البلاغة)([24]).

وقال ابن واضح في كتابه مشاكلة الناس لزمانهم.

(وحفظ الناس عنه الخطب، فإنه خطب بأربعمائة خطبة حفظت عنه وهي التي تدور بين الناس، وبستعملونها في خطبهم)([25]).

وقال المسعودي:

(والذي حفظ الناس عنه من خطبه في سائر مقاماته أربعمائة ونيف وثمانون خطبة [كان عليه السلام] يوردها على البديهة، وتداول الناس ذلك عنه قولاً وعملاً)([26]).

وقال الجاحظ: (إن خطب نهج البلاغة كانت مدوّنة محفوظة مشهورة)([27]).

يتبع =

---

[19] - شرح النهج، ابن أبي الحديد، خطبة 5، 1/213، اضطراب الأرشية: أي اضطراب الحبل المرسل في بئر مطوية بالحجارة.

[20] - المصدر السابق، خطبة 70، 6/127.

[21] - المصدر السابق، خطبة 173، 10/10

[22] - المصدر السابق، كلام 128، 8/215.

[23] - المصدر السابق، 1/17.

[24] - مصادر نهج البلاغة 3 /91، نقلاً عن كتاب (نظرات في القرآن) لمحمد الغزالي ص154.

[25] - مصادر نهج البلاغة وأسانيده 1/50، نقلاً عن كتاب (مشاكلة الناس لزمانهم) ص 15.

[26] - نهج السعادة، المحمودي: 1/12، نقلا عن مروج الذهب، 2 /419، ط بيروت.

[27] - مصادر نهج البلاغة وأسانيده، السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب،دار الأضواء، بيروت، 1/ 50.

تتمة مقال = مصادر نهج البلاغة

ويقول ابن أبي الحديد:

((قال أبو عثمان - الجاحظ -:

[وكان جعفر([28])يعجب أيضًا بقول علي عليه السلام "أين من جدّ واجتهد، وجمع واحتشد، وبنى فشيّد، وفرش فمهد، وزخرف فنجد. قال: ألا ترى أن كل لفظة منها آخذة بعنق قرينتها، جاذبة إياها إلى نفسها، دالّة عليها بذاتها]!

قال أبو عثمان: فكان جعفر يسمّيه "فصيح قريش". واعلم أننا لا يتخالجنا شك في أنه عليه السلام أفصح من كل ناطق بلغة العرب من الأولين والآخرين إلا من كلام الله سبحانه وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله.

وذلك لأن فضيلة الخطيب والكاتب في خطابته وكتابته تعتمد على أمرين:

هما: مفردات الألفاظ ومركباتها.

اما المفردات: فأن تكون سهلة سلسلة غير وحشية ولا معقّدة، وألفاظه عليه السلام كلها كذلك.

فأما المركبات فحُسن المعنى وسرعة وصوله إلى الأفهام واشتماله على الصفات التي باعتبارها فضل بعض الكلام على بعض... إلخ.

ولا شبهة أن هذه الصفات كلها موجودة في خطبه وكتبه، مبثوثة متفرقة في فرش كلامه (عليه السلام) وليس يوجد هذان الأمران في كلام أحد غيره.

فإن كان قد تعملّها وأفكر فيها وأعمل رويته في رصفها ونثرها فلقد أتى بالعجب العجاب، ووجب أن يكون إمام الناس كلهم في ذلك لأنه ابتكره ولم يعرف من قبله.

وإن كان اقتضبها ابتداءً وفاضت على لسانه مرتجلة وجاش بها طبعه بديهة من غير روية ولا اعتمال فأعجب وأعجب، وعلى كلا الأمرين فلقد جاء مجليًا والفصحاء تنقطع أنفاسهم على أثره)([29]).

وقال الشيخ شهاب الدين محمود الآلوسي:

(وسمّيَ (نهج البلاغة) لما انّه قد اشتمل على كلام يخيل أنه فوق كلام المخلوقين دون كلام الخالق عز وجل، قد اعتنق مرتبة الاعجاز وابتدع أبكار الحقيقة والمجاز)([30]).

وقال الدكتور زكي مبارك:

(إني أعتقد أن النظر في كتاب نهج البلاغة، يورث الرجولة والشّهامة وعظمة النفس إنه فيض من روحِ قهّار واجه المصاعب بعزائم الأسود)([31]).

ويقول الإمام الشيخ محمد عبده في مقدمته لشرح نهج البلاغة:

(فقد أوفى لي حكم القدر بالاطلاع على كتاب (نهج البلاغة) مصادفة بلا تعمّل)... إلى أن يقول: (فكان يُخيّل إليّ في كل مقام أن حُروبًا شنّت وغارات شنّت وأن للبلاغة دولة، وللفصاحة صولة)... إلى أن يقول: (وأن مدبر تلك الدولة، وباسل تلك الصولة، هو حامل لوائها الغالب، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. بل كنت كلما انتقلت من موضع إلى موضع أحسّ بتغيّر المشاهد، وتحوّل المعاهد، فتارةً كنت أجدني في عالم يغمُره من المعاني أرواح عالية. في حُلل من العبارات الزاهية)... إلى أن يقول: (وطورًا كانت تتكشّف لي الجمل عن وجوه باسرة، وأنياب كاشره. وأرواح في أشباح النمور، ومخالب النسور. قد تحفزت للوثاب ...

وأحيانا كنت أشهد أن عقلاً نورانيًا، لا يشبه خلقًا جسدانيًا، فُصل عن الموكب الإلهي، واتّصل بالروح الانساني. فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به إلى الملكوت الاعلى... وآناتٍ كأني أسمع خطيب الحكمة ينادى بأعلياء الكلمة، وأولياء أمر الأمة، يعرفهم مواقع الصواب... ذلك الكتاب الجليل هو جملة ما اختاره السيد الشريف الرضي رحمه الله من كلام سيدنا ومولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. جمع متفرقه وسماه بهذا الاسم (نهج البلاغة)، ولا أعلم اسمًا أليق بالدلالة على معناه منه. وليس في وسعي أن أصف هذا الكتاب بأزيد مما دلّ عليه اسمه، ولا أن آتي بشيء في بيان مزيته فوق ما أتى به صاحب الاختيار) ([32]).

وأعتقد أن في هذا القليل القليل مما قاله أكابر الفصحاء والبلغاء والمفكرين كفاية لإعطاء صورة عن مقام نهج البلاغة في العالم بأسره، وسيأتي الكلام في انتشاره عند التعرض لجمعه وعدد خطبه.

أول من شكك في نسبة نهج البلاغة

ذكر السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب في كتابه مصادر نهج البلاغة وأسانيده، أن ابن خلكان (ت681هـ) كان قد بذر بذْرة التشكيك في نهج البلاغة ونسبته للإمام علي (عليه السلام)، حيث قال في كتابه وفيات الأعيان عندما ترجم للسيد المرتضى:

(وقد اختلف الناس في كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الإمام علي بن ابي طالب رضي الله عنه، هل جَمْعُه؟ أم جَمْعُ أخيه الرضي؟ وقد قيل: إنه ليس من كلام علي وإنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه والله أعلم) ([33]).

ويتابع السيد الخطيب كلامه فيقول:

(ثم جاء من بعده كل من الصفدي في "الوافي بالوفيات" واليافعي في "مرآة الجنان"، والذهبي في "ميزان الاعتدال"؛ وابن حجر في "لسان الميزان"؛ وغير أولئك من القدامى والمحدثين، فتابعوه على هذا الرأي).

ثم يحاسب ابن خلكان فيقول:

(وليته دلّنا على واحد من أولئك الناس الذين اختلفوا في جامع نهج البلاغة، وليتك أخي القارئ تعثر لنا على واحد من أولئك الناس في الكتب المؤلفة قبل "وفيات ابن خلكان" وما أكثرها في هذا الوقت)([34]).

وحقيقةً أقول ما أجلّ هذا الكلام للسيد الخطيب سدّده الله وأبقاه، وما أجلّ مؤلّفه العظيم "مصادر نهج البلاغة وأسانيده"، وهو كاف وافٍ لمن أراد الحق وفتش عن الحقيقة، ويدلّك ما فيه على الجهود الجبارة التي بذلها المؤلف لجمع هذا السفر الجليل، فجزاه الله عن الاسلام خيرًا... وإني أحيل المتتبّع على هذا المؤلّف ليكتشف الحقيقة كاملة، كما وأحيله على مؤلِّف جليل آخر يعالج الفكرة نفسها ويذكر الخُطب التي لم تَرد في نهج البلاغة للإمام علي (عليه السلام) وهو نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة لصاحب الفضيلة الشيخ محمد باقر المحمودي، فمن طالع هذين الكتابين الجليلين يستغني عن تتبع مصادر نهج البلاغة، ويجد فيهما أضعاف ما في النهج بالأسانيد المتصلة فجزاهما الله خير جزاء المحسنين.

وبعد التحويل على هذين السفرين الجليلين أرى من نافلة القول ذكري للأسانيد لأنه لا يمكنني أن أستوفي البحث كاملاً كما يجب لحاجته لمؤلَّف كامل لا لمحاضرة، والمحاضرة تومئ للأصل وتهدي إليه وهي بفهرس المواضيع أشبه.

وقد قسّم السيد الخطيب المصادر إلى أربعة أقسام، وما يعنينا منها قسمان:

الأول: مصادر أُلّفت قبل صدور نهج البلاغة للشريف الرضي أي قبل سنة 400 هـ، وعدد هذه المصادر مائة وأربعة عشر مصدرًا.

الثاني: مصادر أُلّفت بعد زمن الشريف، وذكرت الأسانيد دون أن تأتي على ذكر الشريف، وأخرى نقلت الكلام بصورة مختلفة عن نقله في نهج البلاغة بدون إشارة إليه وقد بلغ عددها سبعة وعشرين مصدرًا.

أما مصادر الشريف فقد ذكر منها خمسة عشر مصدرًا مصرحًا بها في نهجه.

منها: البيان والتبيين للجاحظ ج2 ص 76؛ المقتضب للمبرد ج3 ص 263؛ تاريخ الطبري ج3 ص 243؛ المغازي لسعيد بن يحيى الأموي ج3 ص 150؛ الجمل للواقدي ج3 ص 149؛ المقامات لأبي جعفر الإسكافي ج3 ص122.

وما يثير العجب ويدعو للتساؤل: لماذا وضع الشريف الرضي أو فصحاء الشيعة هذا الكلام على لسان أمير المؤمنين عليه السلام؟

وكل من يضع شيئًا أو يعمل عملاً يقصد منه غاية ونفعًا.

وجميع الفصحاء والأدباء يفتخرون بما يحفظونه من نهج البلاغة ويقدّسون صاحبه، والوعّاظ يعتبرونه المثل الأعلى، فمن هو هذا العاقل المتواضع (الوضّاع) الذي يهمل اسمه وينسب هذا الكنز الفوّار مجانًا لغيره؟ ما هذا إلا هراء!

يتبع =

---

* نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في دورته الأولى، ومؤسس جميعة التوجيه الإسلامي، ومفتي بعلبك، توفي سنة 1978م.

[1] - أعدّ الكاتب هذا البحث بناء على طلب من مؤتمر نهج البلاغة العالمي الرابع الذي انعقد في طهران بتاريخ 13 رجب 1404 الموافق 1984م، وقد قامت المجلة ببعض التنقيحات الضرورية.

[2] - سورة البقرة من الآية30.

[3] - سورة البقرة من الآية30.

[4] - سورة البقرة من الآية 31.

[5] - سورة الحجر من الآية: 30-31.

[6] - سورة الأعراف:12

[7] - سورة الأعراف:20

[8] - سورة إبراهيم، من الآية:9-10.

[9] - عبقرية الشريف الرضي ص 223-224.

[10] - سورة المائدة، من الآية 77.

[11] - سورة المؤمنون، من الآية 71.

[12] - شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، دار إحياء الكتب العربية: خطبة 38، 2 /298.

[13] - سورة التوحيد: الآية1.

[14] - سورة الشورى: من الآية11

[15] - خنس: أي تأخر

[16] - شرح النهج، ابن أبي الحديد، 1 /24.

[17] - نفس المصدر السابق.

[18] - سورة يونس، من الآية 38.

[19] - شرح النهج، ابن أبي الحديد، خطبة 5، 1/213، اضطراب الأرشية: أي اضطراب الحبل المرسل في بئر مطوية بالحجارة.

[20] - المصدر السابق، خطبة 70، 6/127.

[21] - المصدر السابق، خطبة 173، 10/10

[22] - المصدر السابق، كلام 128، 8/215.

[23] - المصدر السابق، 1/17.

[24] - مصادر نهج البلاغة 3 /91، نقلاً عن كتاب (نظرات في القرآن) لمحمد الغزالي ص154.

[25] - مصادر نهج البلاغة وأسانيده 1/50، نقلاً عن كتاب (مشاكلة الناس لزمانهم) ص 15.

[26] - نهج السعادة، المحمودي: 1/12، نقلا عن مروج الذهب، 2 /419، ط بيروت.

[27] - مصادر نهج البلاغة وأسانيده، السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب،دار الأضواء، بيروت، 1/ 50.

[28] - جعفر بن يحيى وكان من أبلغ الناس وأفصحهم.

[29] - شرح النهج، ابن أبي الحديد، 6 /278.

[30] - مصادر نهج البلاغة وأسانيده ص 91، نقلاً عن كتاب (الخريدة الغيبية في شرح القصيدة العينية) لأبي الثناء الآلوسي ص133.

[31] - عبقرية الشريف الرضي ص 224.

[32] - خطب نهج البلاغة، تحقيق الإمام الشيخ محمد عبده، دارالمعرفة، بيروت، 1/3-4.

[33] - مصادر نهج البلاغة وأسانيده، السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب،دار الأضواء، بيروت، ط2، 1985م، 1/102.

[34] - نفس المصدر السابق ص102-103.

.

تتمة مقال - مصادر نهج ا لبلاغة

دفع ابن أبي الحديد للشبهة:

يقول ابن أبي الحديد في شرحه:

(لأن كثيرًا من أرباب الهوى يقولون إن كثيرًا من (نهج البلاغة) كلام محدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة، وربما عزوا بعضه إلى الرضي أبي الحسن أو غيره، وهؤلاء أعمت العصبية أعينهم فضلّوا عن النهج الواضح، وركبوا بنيات الطريق، ضلالا وقلة معرفة بأساليب الكلام)([1]).

ويبين بطلان ما ذهبوا إليه فيقول:

(وقد شغف الناس في المواعظ بكلام كاتب محدث، يعرف بابن أبى الشحماء العسقلاني، وأنا أورد هاهنا خطبة من مواعظه، هي أحسن ما وجدته له، ليعلم الفرق بين الكلام الاصيل والمولد).

ثم يُورد الخطبة بما لا يتسع مجالنا لذكره ويقول بعدها (ص127):

(هذه أحسن خطبة خطبها هذا الكاتب، وهى كما تراها ظاهرة التكلّف، بينة التوليد، تخطب على نفسها)

وينقض على القائلين بالشبهة ويبطل أقوالهم بدليلين (ص129):

الدليل الأول: لا يخلو إما أن يكون كل نهج البلاغة مصنوعا منحولاً، أو بعضه.

والأول باطل بالضرورة، لأنّا نعلم بالتواتر صحة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقد نقل المحدثون - كلهم أو جلهم - والمؤرخون كثيرًا منه، وليسوا من الشيعة لينسبوا إلى غرض في ذلك.

والثاني: - أي أن يكون بعضه منحولاً- يدل على ما قلناه، لأن من قد أنس بالكلام والخطابة، وشدا طرفًا من علم البيان، وصار له ذوق في هذا الباب، لا بد أن يفرّق بين الكلام الركيك والفصيح، وبين الفصيح والأفصح، وبين الأصيل والمولد، وإذا وقف على كرّاس واحد يتضمن كلامًا لجماعة من الخطباء، أو لاثنين منهم فقط، فلا بدّ أن يفرّق بين الكلامين، ويميّز بين الطريقتين، ألا ترى أنّا مع معرفتنا بالشعر ونقده، لو تصفّحنا ديوان أبي تمام، فوجدناه قد كتب في أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره، لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبي تمام ونَفَسه وطريقته ومذهبه في القريض، ألا ترى أن العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه لمباينتها لمذهبه في الشعر، وكذلك حذفوا من شعر أبي نواس شيئًا كثيرًا لِمَا ظهر لهم أنه ليس من ألفاظه ولا من شعره!)

إلى أن يقول:

(وأنت إذا تأملت نهج البلاغة وجدته كله ماءً واحدًا، ونفسًا واحدًا، وأسلوبًا واحدًا، كالجسم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفًا لباقي الأبعاض في الماهية، وكالقرآن العزيز، أوله كأوسطه، وأوسطه كآخره، وكل سورة منه وكل آية مماثلة في المأخذ والمذهب والفن والطريق والنظم لباقي الآيات والسور، ولو كان بعض نهج البلاغة منحولاً وبعضه صحيحًا، لم يكن ذلك كذلك، فقد ظهر لك بهذا البرهان الواضح ضلال من زعم أن هذا الكتاب أو بعضه منحول إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

الدليل الثاني: واعلم أن قائل هذا القول يطرق على نفسه ما لا قبل له به، لأنّا متى فتحنا هذا الباب، وسلّطنا الشكوك على أنفسنا في هذا النحو، لم نثق بصحّة كلام منقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله أبدًا، وساغ لطاعن أن يطعن ويقول: هذا الخبر منحول، وهذا الكلام مصنوع، وكذلك ما نقل عن أبي بكر وعمر من الكلام والخطب والمواعظ والأدب وغير ذلك، وكل أمر جعله هذا الطاعن مستندًا له فيما يرويه عن النبي صلى الله عليه وآله، والأئمة الراشدين، والصحابة والتابعين، والشعراء والمترسلين، والخطباء، فلناصري أمير المؤمنين عليه السلام أن يستندوا إلى مثله فيما يروونه عنه من نهج البلاغة وغيره، وهذا واضح).

وقد دفع الدكتور زكي مبارك الشبهة بكلمة مختصرة، قال:

(لا مفرّ من الاعتراف بأن (نهج البلاغة) له أصل، وإلا فهو شاهد على أن الشيعة كانوا من أقدر الناس على صياغة الكلام البديع)([2]).

ما هو نهج البلاغة؟

هو الكتاب الذي جمعه الشريف الرضي رحمه الله تعالى من مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام من خطب وكتب ومواعظ وأدب.

وقد ضمّ الكتاب من المختارات ما يلي:

(241) خطبة وكلامًا، وبعضهم يعتبرها (237) خطبة حسب تقسيم الخطب أو ضمها إلى بعضها.

(79) كتابًا ووصية وعهدًا.

(480) كلمة قصيرة.

والشريف (رضي الله عنه) كما جاء في مقدمة الكتاب لم يذكر الخطبة أو الكلام كاملاً وإنما اختار من كل الكلام أعاليه.

ولو أنه ذكر كل ما ورد عن الإمام (عليه السلام) لأتى بأضعاف ما جاء به. لأنك كما سمعت أن خطب الإمام (عليه السلام) تتروح بين الأربعمائة والأربعمائة وثمانين خطبة (480) وهو الضعف من حيث العدد، فضلاً عن أن المجموع في النهج هو المختار من نصف خطب الإمام (عليه السلام) كما صرح الشريف الرضي رحمه الله بذلك في المقدمة حيث قال فيها:

(سألوني أن أبتدأ بتأليف كتاب يحتوي على مختار كلام أمير المؤمنين عليه السلام في جميع فنونه، ومتشعبات غصونه، من خطب وكتب ومواعظ وأدب، علمًا أن ذلك يتضمن من عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربية، وثواقب الكلم الدينية والدنيوية، ما لا يوجد مجتمعا في كلام، ولا مجموع الأطراف في كتاب، إذ كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها، ومنشأ البلاغة ومولدها، ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها، وعلى أمثلته حذا كل قائل خطيب)([3]).

انتشار نهج البلاغة:

لم يكن نهج البلاغة أول كتاب جمع محاسن كلام الإمام علي (عليه السلام) فقد كان في عصره (عليه السلام) من جمع بعض خطبه ودوّنها، وبعض من حفظها، وقد قدّمنا أن عدد المصادر قبل النهج بلغ مائة وأربعة عشر مصدرًا، والخطب ضعف ما في النهج، ولكن الذي يقرُب من اليقين أن سبب انتشار النهج هو الجمع والاختيار بحيث يصعب على القارئ تتبّع الخطب الطويلة فضلاً عن صعوبة فهم المعاني.

فلذلك كان اختيار قسم من الخطب أسرع للحفظ وأقرب للتناول وآثر في النفس خصوصًا عندما تكون منتقاة.

والناس بشكل عام - سوى المحققين - لا يعرفون كلامًا لأمير المؤمنين (عليه السلام) غير نهج البلاغة، بحيث أصبح اقتناؤه تاليًا لاقتناء القرآن الكريم.

آراء في نهج البلاغة:

الآراء في النهج لا تُحصى ولكنّ صورة مختصرة عنها تفي بالغرض وتكمل ما قدمناه عن مقامه.

قال محمد أبو الفضل إبراهيم في مقدمة شرح نهج البلاغة:

(منذ أن صدر هذا الكتاب عن جامِعِه، سار في الناس ذكرُه، وتألّق نجمه، أشأم وأَعْرَق، وأَنجد وأَتهم، وأُعجب به الناس حيث كان، وتدارسوه في كل مكان، لما اشتمل عليه من اللفظ المُنتقى والمعنى المُشرق، وما احتواه من جوامع الكلم ونوابغ الحكم، في أسلوب متساوق الأغراض، مُحكم السبك، يُعدّ في الذروة العليا من النثر العربي الرائع)([4]).

وقال الشيخ محمود شكري الألوسي:

(هذا كتاب (نهج البلاغة) من خطب الإمام علي (عليه السلام) ما هو إلا قبس من نور الكلام الإلهي، وشمس تضيء بفصاحة المنطق النبوي)([5]).

فعن الشيخ محمد عبده أنه قال: (فلا يطلب الطالب طَلِبةً إلا ويرى فيه أفضلها، ولا تخالج فكره رغبةٌ إلا وجد فيه أكملها)([6]).

وقال الاستاذ محمد حسن المرصفي:

(نهج البلاغة، ذلك الكتاب الذي أقامه الله حجة واضحة على أن عليًا كان أحسن مثال حي لنور القرآن وحكمته وعلمه وهدايته وإعجازه وفصاحته)([7]).

وقال الدكتور صبحي الصالح:

(وفي خطب عليّ، خاصّةٌ فريدةٌ لا تكاد تُفارقها، وهي كثرة اقتباسه من القرآن المجيد والحديث الشريف، فقد رأى نور الوحي، وربي في بيت النبوة، ووعت ذاكرته القوية كثيرًا من ألفاظ القرآن والسنة، حتى انطبع أسلوبه بطابع عجيب يعلو على أساليب البلغاء من البشر القديم والحديث)([8]).

وقال ابن أبي الحديد:

(إن سطرًا واحدًا من (نهج البلاغة) يساوي ألف سطر منه - أي كلام ابن نباتة- بل يزيد ويربى على ذلك) ([9])....
إلى أن يقول: (هذا الخطيب الفاضل الذي اتفق الناس على أنه أوحد عصره في فنّه)([10]).

(فكان الرضي باختياره أبلغ منه في كتاباته، كما قيل عن أبي تمّام لما جمع ديوان الحماسة من منتخبات شعر العرب- إنه في انتخاباته أشعر منه في شعره)([11]).

وقال السيد محسن الأمين:

(وقد لاقى نهج البلاغة من الشهرة والقبول ما هو أهله، وشُرح شروحًا كثيرة تنبو عن الإحصاء، وكان مفخرة من أعاظم مفاخر العرب والإسلام)([12]).

خاتمة البحث:

عساني أن أكون قد قدّمت نموذجًا لنهج البلاغة وفهرسًا عن أسانيده، وما أعجزني عن ذلك، لأن نهج البلاغة يحتاج إلى دراسة مفصّلة ودقيقة ليس من حيث الأسانيد حسبما أعتقد، فكم من كتاب قطعي السند ولا فائدة له، وإنما من جهة علومه ونظرياته التي لم يطلها البحث مفصلاً، أو طالها ولم يصلنا، كالعلوم الطبيعية والإنسانية وما شاكلها، والمغيبات وقواعدها، فإنا نجد أن هذه الظاهرة تجري على قواعد رياضية دقيقة يستحيل اخترامها.

فعلي (عليه السلام) يقول: (فاسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها، ومناخ ركابها ومحط رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلاً ويموت منهم موتًا)([13]).

وقال للكلبي: (يا أخا كلب ليس هو بعلم غيب، وإنما هو تعلم من ذي علم)([14]).

ومعنى التعلّم هنا: معرفة المقدّمات والطرق الموصلة إلى النتائج القطعية، فهو علم بالقواعد التي لا تتخلف عنها النتائج.

ويدل على هذا المعنى تمام كلامه (عليه السلام) بعد قوله (فاسألوني قبل أن تفقدوني) الذي يقول فيه: (ولو قد فقدتموني ونزلت بكم كرائه الأمور.... لأطرق كثير من السائلين وفشل كثير من المسؤولين).

إلى كثير من الأخبار التي يخبر بها عما سيكون مستقبلاً ويفسّر معرفتها بأنه علم...

والتعلّم أثبت حديثًا مقدرته على معرفة المستقبل إذا تمكن صاحبه من معرفة القواعد الرياضية الثابتة، كما يرى كثير من العلماء المعاصرين، مثل "ماكس بلانك" الذي يرى: أن الفيزياء النظرية الحديثة محتاجة إلى استخدام فكرة العلة الغائية إلى جانب العلة الفاعلية، وهذه العلة الغائية تمكّن من تحديد المستقبل، لأنها تفترض غاية يسعى إلى تحقيقها، وهذا يمكّن من استنباط سير الأحداث المقبلة([15]).

ويقول أيضًا: فبمعرفة العلة الغائية نتمكن من تحديد المستقبل واستنباط الأحداث المقبلة، وهذا يحتاج لمعرفة القواعد الدقيقة التي لا تخطئ.

وتقوم المعرفة العلمية على أساس مبدأ العلية القائل: إن كل ما يحدث له علة، ونفس العلل تنتج نفس المعلولات... ومن هنا كان مبدأ قانونية الطبيعة الذي يقول: إن أحداث الطبيعة تقع وفقًا لقوانين حتمية كلية دقيقة... فيمكن التنبؤ بما سيحدث إذا عرفنا الأحوال القائمة في لحظة ما... فالخطأ إنما يحدث لعدم معرفة الأحوال القائمة في تلك اللحظة([16]).

يقول أينشتين وأنفلد:

ليس العلم مجموعة من القوانين وثبتًا بالوقائع غير المترابطة فيما بينها، إنه من خلق العقل الإنساني بواسطة أفكار وتصوّرات اخترعت بحرّية، والنظريات الفيزيائية تحاول أن تُكّون صورة عن الواقع تربطها بالعالم الفسيح للانطباعات الحسّية، وهكذا فإن أبنيتنا العقلية لا تتبرّر إلا إذا كوّنت نظرياتنا هذه الرابطة وعلى نحو معين([17]).

فإذا لم يتمكن العالم من ربط النظريات على نحو معين تقع الأخطاء. وهو المعبر عنه بقول الإمام (عليه السلام): (لأطرق كثير من السائلين وفشل كثير من المسؤولين).

هذه المباحث تستحق الاهتمام والدراسة الدقيقة في نهج البلاغة أكثر من غيرها وخصوصًا في عصرنا، وهي بحدّ ذاتها تجعل نهج البلاغة مسندًا تستقي منه صحتها، ودليل حقيقتها وثباتها، لأن طبيعة القوانين التي تنصّ عليها لها من الثبات والدوام ما جعل العالم بعد أربعة عشر قرنًا يتدارسها بدقة ليتوصّل لمعرفة بعض ما تنطوي عليه تلك القواعد والقوانين.

ومن ينطق بتلك الحقائق الثابتة من ذلك التاريخ، يحمل دليل صحته بذاته، ولا يحتاج لإسناد، وتكون الشُّبَه بالنسبة إليه مزيجًا من الجهل والأهواء نستجير بالله منهما.

فنهج البلاغة يتحصّن عن الشُّبهات بالقداسة والتنزيه الذاتيين اللذين يفتقر إليهما كل مؤلَّف سواه بسبب ما يتضمنه من علم بالحقائق الثابتة وإعطاء القوانين الصحيحة الدقيقة ناهيك ببلاغته التي أعجزت أرباب اللغة حتى اليوم، وستبقى معجزة حتى الأبد.

انتهى المقال

---

[1] - شرح النهج، ابن أبي الحديد، 10/127-128، وبنيات الطريق هي الطرق الصغار تتشعب من الجادة.

[2] - عبقرية الشريف الرضي ص 223.

[3] - شرح النهج، ابن أبي الحديد،1/44.

[4] - محمد أبو الفضل إبراهيم مقدمة شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

[5] - الشيخ محمود شكري الآلوسي مصادر نهج البلاغة وأسانيده 1/88.

[6] - منهج في الانتماء المذهبي، صائب عبد الحميد (معاصر)، ص158، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، قم، نقلاً عن مقدمة الشيخ محمد عبده في شرحه لنهج البلاغة.

[7] - الأستاذ محمد حسن المرصفي- مصادر نهج البلاغة وأسانيده، 1/89.

[8] - الدكتور صبحي الصالح في مقدمته لشرحه ص 26.

[9] - شرح النهج، ابن أبي الحديد 7/214.

[10] - المصدر السابق، 7/216.

[11] - مصادر نهج البلاغة وأسانيده، السيد عبد الزهراء الحسيني الخطيب، دار الأضواء، بيروت، ط2، 1985م، 1/88.

[12] - أعيان الشيعة للسيد الأمين – أسانيد 44/89.

[13] - شرح النهج، ابن أبي الحديد، خطبة 92، 7/44

[14] - نفس المصدر خطبة 128، 8/217.

[15] - مدخل جديد إلى الفلسفة لعبد الرحمن بدوي،ط2، سنة 1979ص 229، بتصرف.

[16] - نفس المصدر ص 83.

[17] - نفس المصدر ص69،70.

الهوامش

* نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في دورته الأولى، ومؤسس جميعة التوجيه الإسلامي، ومفتي بعلبك، توفي سنة 1978م.

ولادة الأمير (ع) في الكعبة المشرفة

الشيخ أحمد صمادي

ولادة أمير المؤمنين (ع) في الكعبة المشرفة

الشيخ أحمد صمادي*

نسبه الشريف

كل مولود تتأثر شخصيته بآبائه وأجداده وتأخذ شخصيته منهم، والإمام علي (عليه السلام) معروف النسب، فهو ابن سادة العرب وأهل المروءة والشجاعة والكرم, والذين توارثوا السيادة وخصالها أبًا عن جد، فهو علي بن أبي طالب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان(1).

والده: أبو طالب المسمى بعبد مناف, استنادًا إلى ما جاء في وصية عبد المطلب لولده أبي طالب (عليهما السلام) بكفالة النبي (صلى الله عليه وآله), حيث جاء فيها: أوصيك يا عبد مناف... (2).

وقيل اسمه عمران, لِما جاء في زيارة النبي (صلى الله عليه وآله) من بعيد حسب بعض النسخ(3).

وهو كفيل النبي (صلى الله عليه وآله) بعد والده عبد المطلب، وحاول أعداء علي (عليه السلام) النيل من إسلام وإيمان أبي طالب (عليه السلام) حقدًا لولده أمير المؤمنين (عليه السلام), فنسبوا إليه كفر المعاندة، فقد مثّل كل من ابن منظور في لسان العرب والزبيدي في تاج العروس في مادّة كفر لكفر المعاندة بأبي طالب (عليه السلام) نقلاً عن التهذيب, فقالا: وفي التهذيب: يعترف بقلبه ويقر بلسانه ويأبى أن يقبل كأبي طالب حيث يقول:

ولقد علمت بأن دين محمد	من خير أديان البرية دينا

ولا أدري أين الكفر ما دام يعترف بقلبه ويقرّ بلسانه؟!, ويكفيه فخرًا وتأييدًا لإيمانه ما روي عن الصادق (عليه السلام) بحقه: لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان باقي الخلق في كفة ميزان لرجح إيمانه على إيمانهم(4).

جدّه: عبد المطلب شيبة الحمد المكنّى بأبي الحرث، وقد كفل النبي (صلى الله عليه وآله) حتى رحل إلى الرفيق الأعلى، وكان عمره (صلى الله عليه وآله) ثماني سنوات, فكفله عمه أبو طالب بوصية أبيه عبد المطلب (عليهما السلام), كما ذكرنا آنفاً.

أمه: فاطمة بنت أسد (عليها السلام), التي كانت خير أم لرسول الله (صلى الله عليه وآله) كذلك، وكانت من السابقات للإسلام والإيمان برسول الله (صلى الله عليه وآله) ومن جملة المهاجرين إليه، بل كانت (عليها السلام) مؤمنة بالله ورسله وكتبه وعلى دين جدها إبراهيم الخليل قبل بعثة النبي (صلى الله عليه وآله), كما يشهد بذلك دعاؤها عندما جاءها المخاض عند الكعبة كما سيأتي، وقد خطب أبو طالب من أسد بن هاشم عقيلته فاطمة, فقال له: (الحمد لله رب العالمين، رب العرش العظيم، والمقام الكريم، والمشعر والحطيم، الذي اصطفانا أعلاماً، وسدنة، وعرفاء، وخلصاء، وحجبة بهاليل، أطهاراً من الخنى والريب والأذى والعيب، وأقام لنا المشاعر، وفضّلنا على العشائر، نخب آل إبراهيم وصفوته وزرع إسماعيل... ثم قال: تزوجت فاطمة بنت أسد وسقت المهر ونفذت الأمر، فاسألوه واشهدوا، فقال أبوها أسد: زوجناك ورضينا بك...)(5).

وقد ولدت لأبي طالب عليه السلام: طالبًا وعقيلاً وجعفرًا وعليًا (عليه السلام) وهو أصغرهم, وكان لها من البنات أم هانئ وجمانة وريطة(6).

وكانت تؤثر رسول الله (صلى الله عليه وآله) على أولادها, كما نقل عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (فكانت تشبعني وتجيعهم, وتكسوني وتعريهم وتدهنني وتشعثهم)، وقد كفنها رسول الله (صلى الله عليه وآله) عندما قبضت روحها الطاهرة بقميصه, وكبّر عليها (صلى الله عليه وآله) عندما صلى عليها أربعين تكبيرة, ولقّنها الشهادة واضطجع في لحدها, وبكى وحزن عليها(7).

هذا, وقد امتاز أمير المؤمنين (عليه السلام) بفضائل لم تكن لأحد غيره بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله), فهو السبّاق إلى الإسلام, وهو من رُدّت له الشمس في أكثر من موقع، وأخ رسول الله (صلى الله عليه وآله) ونفسه بحسب آية المباهلة، وهو قسيم الجنة والنار، وهو باب مدينة علم النبي (صلى الله عليه وآله), فقد كان أعلم الناس وأعبدهم وأشجعهم، فقد شارك في كل الغزوات والسرايا عدا غزوة تبوك, حيث أبقاه الرسول النبي (صلى الله عليه وآله) في المدينة لأمر أهم, ألا وهو الحفاظ عليها من المشركين، ويكفي في بيان فضائله ما قاله الشافعي عندما سئل: ما تقول في علي؟ فقال: وماذا أقول في رجل أخفى أولياؤه فضائله خوفًا، وأخفى أعداؤه فضائله حسدًا، وشاع له بين ذين وذين ما ملأ الخافقين(8).

بل لا يمكن معرفة خصائصه, ولا يمكن إحصاء فضائله, لأنه لا يعرف فضائله إلا الله ورسوله (صلى الله عليه وآله), كما نقل عن لسان رسول الله (صلى الله عليه وآله): (يا علي لا يعرفك إلا الله وأنا)(9).

ومن بين تلك الفضائل ولادته(عليه السلام) في الكعبة المشرفة والتي هي موضوع حديثنا.

الولادة في جوف الكعبة

شاءت إرادة العلي القدير, أن تكون الكعبة المشرفة, ذلك المكان المقدس والذي كان وما يزال موضع اهتمام العرب والمسلمين, أن يكون موضعًا لولادة أمير المؤمنين (عليه السلام)، تلك الولادة التي أطبق عليها المؤالف والمخالف والسلف والخلف، وذكرها العامة قبل الخاصة، ورويت في كتب الحديث والتاريخ ودواوين الشعر, حتى غدت من الحقائق الناصعة التي لا شك فيها، وصارت كالنار على المنار بل كالشمس في رابعة النهار، فبعد ثلاثين سنة من عام الفيل, وقبل عشر سنوات من بعثة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله)، وبالتحديد في يوم الجمعة، الثالث عشر من شهر رجب الأصب, كانت الكعبة على موعد تنتظر بفارغ الصبر وبمنتهى الشوق ولادة أمير المؤمنين (عليه السلام)، فالتجأت إليها فاطمة بنت أسد (عليها السلام), وبإلهام رباني, بعد أن أتمّت شهرها التاسع وأحسّت بألم المخاض, فتعلقت بأستار الكعبة واهنة مرتعشة, وألصقت نفسها بجدارها من الجانب الغربي عند الركن اليماني من جهة المستجار, ودعت ربها: يا ربي إني مؤمنةٌ بك, وبما جاء من عندك من رسلٍ وكتب, وإني مصدّقة بكلام جدّي إبراهيم الخليل (عليه السلام) الذي بنى بيتك العتيق، فبحقّ الذي بنى هذا البيت، وبحق المولود الذي في بطني، إلا ما يسّرت عليَّ ولادتي.

وما إن انتهت من كلامها حتى انشق لها جدار الكعبة, ونوديت نداءً خفيًا أن يا فاطمة ادخلي بيت ربك، فدخلت ثم ارتأب الصدع, والناس يعاينون ما يحدث بذهول واستغراب، وكان من بين الحاضرين العباس بن عبد المطلب ويزيد بن قعنب وفريق من بني هاشم وجماعة من بني عبد العزى.

قالوا فحاولنا أن نفتح باب الكعبة ليدخل بعض النساء لمساعدتها في أمر الولادة فلم ينفتح الباب, فعلمنا أن ذلك من أمر الله تعالى.

وفي اليوم الثالث(10)خرجت فاطمة بنت أسد (عليها السلام) من نفس الجهة التي دخلت منها, وهي تحمل ولي الله علي بن أبي طالب (عليه السلام)(11).

فاستقبلها أبو طالب (عليه السلام) مهنئًا لها, فناولته وليده الحبيب فضمه إلى صدره, ثم أعطاه لمحمد (صلى الله عليه وآله) فقبله وحمد الله على ظهوره، وحنّكه وأذّن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى, ففتح (عليه السلام) عينيه وضحك في وجه رسول الله (صلى الله عليه وآله), ثم نحر أبو طالب الأنعام وأقام وليمة على شرف الوليد المبارك (12).

وقد ولدته على الرخامة الحمراء الكائنة بين الاسطوانتين بين الباب والركن اليماني(13).

وساعدها في الولادة حوّاء ومريم ابنة عمران وآسية وأم موسى (عليهن السلام)، ولما ولد سجد (عليه السلام) معطيًا ظهره للأصنام المنصوبة فوق الكعبة, وهو يقول: أشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا رسول الله (صلى الله عليه وآله), تُختم به النبوة وتُختم بي الوصية.. ثم أخذته مريم ابنة عمران (عليها السلام)

وضمخته بطيب الجنة، ثم تناولته آسية بنت مزاحم ولفّته بثوب أحضرته معها من الجنة(14).

وقد حدثت فاطمة بنت أسد (عليها السلام) عما جرى معها, قالت: إني دخلت بيت الله الحرام فأكلت من ثمار الجنة وأرزاقها، فلما أردت أن أخرج هتف بي هاتف: يا فاطمة، سميه عليًا، فهو علي، والله العلي الأعلى يقول: إني شققت اسمه من اسمي وأدبته بأدبي، وأوقفته على غامض علمي، وهو الذي يكسر الأصنام في بيتي، وهو الذي يؤذن فوق ظهر بيتي ويقدسني ويمجدني، فطوبى لمن أحبه وأطاعه، وويل لمن أبغضه وعصاه(15).

ثم قالت (عليها السلام): فولدت عليًا ولرسول الله (صلى الله عليه وآله) ثلاثون سنة، فأحبه رسول الله (صلى الله عليه وآله) حبًا شديدًا، وقال لها: اجعلي مهده بقرب فراشي, وكان (صلى الله عليه وآله) يلي أكثر تربيته, وكان يطهّر عليًا في وقت غسله, ويوجره اللبن عند شربه, ويحرك مهده عند نومه، ويناغيه في يقظته, ويحمله على صدره ورقبته، ويقول: هذا أخي ووليي وناصري وصفيي وذخري وكهفي وصهري ووصيي وزوج كريمتي وأميني على وصيتي وخليفتي(16).

وقد هبط جبرائيل على النبي (صلى الله عليه وآله) عند ولادة علي (عليه السلام) مهنئًا له, قال النبي (صلى الله عليه وآله): هبط حبيبي جبرئيل عليه السلام في وقت ولادة علي عليه السلام, فقال: يا حبيب الله، الله يقرئك السلام ويهنئك بولادة أخيك علي، ويقول: هذا أوان ظهور نبوتك وإعلان وحيك، وكشف رسالتك، إذ أيدتك بأخيك ووزيرك وصنوك وخليفتك, ومن شددت به أزرك، وأعليت به ذكرك(17).

أثر الشِّق على جدار الكعبة

من المعلوم أن للكعبة بابًا يمكن الدخول منه, ولكن فاطمة بنت أسد (عليها السلام) لم تدخل من الباب بل انشق لها الجدار, ليكون أوضح وأدل على أن الولادة بأمر رباني لا يستند إلى الصدفة والاتفاق, جعله الله تعالى ليطلع عليه الناس حتى مستقبلاً, ليعرفوا أن عليًا (عليه السلام) هو الذي اصطفاه الله عز وجل بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ومما يؤكد ذلك: أن أثر الفطر على الجدار, من الجهة المقابلة للحجر من الجانب الغربي عند المستجار جنب الركن اليماني, ما يزال واضحًا وماثلاً للعيان حتى يومنا هذا، وسيبقى رغم تجديد بناء الكعبة أكثر من مرة.

فقد بنيت قبل البعثة بخمس سنوات عندما هدمها السيل, وقصة اختلاف القبائل - في القبيلة التي لها حق وضع الحجر الأسود في مكانه, حتى كاد يقع الدم بينهم, ثم تحكيمهم النبي (صلى الله عليه وآله), الذي كان يعرف بالصادق الأمين حتى قبل البعثة, فأشار عليهم بوضع الحجر في ثوب, ثم يأخذ سيد كل قبيلة بطرف منه ويرفعونه, فيأخذه النبي (صلى الله عليه وآله) فيضعه في مكانه, حتى وأد الفتنة بحكمته - قصة مشهورة(18).

وبُنيت في زمن عبد الله بن الزبير, بعد أن تسلّط على الحجاز في عهد يزيد ابن معاوية, فحاربه الحصين قائد جيش يزيد بمكة، وأصاب الكعبة بالمنجنيق, فانهدمت وأحرقت كسوتها وبعض أخشابها، ثم انكشف عنها لموت يزيد، فرأى ابن الزبير أن يهدم الكعبة ويعيد بناءها، وتم الفراغ من بنائها في 17 رجب سنة 64 هجرية.

وبنيت في زمن الحجاج بن يوسف الثقفي، فبعد أن تولى عبد الملك بن مروان الخلافة, بعث الحجاج قائد جيشه, فحارب ابن الزبير حتى غلبه فقتله, فأخبر الحجاج عبد الملك بما أحدثه ابن الزبير في الكعبة, فأمره بإرجاعها إلى شكلها الأول, فهدمت وأعيد بناؤها.

ولما تولى السلطان سليمان العثماني الملك سنة تسعماية وستين للهجرة غيّر سقفها.

ولما تولى السلطان أحمد العثماني سنة إحدى وعشرين بعد الألف أحدث فيها ترميمًا, ولما حدث السيل العظيم سنة تسع وثلاثين بعد الألف هدم بعض حوائطها الشمالية والشرقية والغربية، فأمر السلطان مراد الرابع من ملوك آل عثمان بترميمها، ولم تزل على ذلك حتى اليوم(19).

ومع هذا بقي الأثر ظاهرا للعيان من المكان الذي دخلت منه فاطمة (عليها السلام)، ويقال بأنهم جهدوا لإخفائه بشتى الوسائل فلم يُفلحوا, وكيف يقدرون على إخفاء ما يريد الله إظهاره؟!

بل إن لإدخال والدة أمير المؤمنين عليه السلام من عند المستجار من جانب الركن اليماني -حيث يستحب الالتصاق هناك والتضرع والدعاء والسؤال لقضاء الحوائج- دلالات أخرى, تؤكد على أن الله سبحانه وتعالى يريد حثّ المسلمين على الالتصاق بحائط الكعبة عند المستجار, لإعلامهم بذلك الحدث المبارك.

روي عن أبي عبد الله (عليه السلام): إذا فرغت من طوافك وبلغت مؤخر الكعبة - وهو بحذاء المستجار دون الركن اليماني بقليل - فابسط يديك على البيت, وألصق بطنك وخدك بالبيت وقل: " اللهم البيت بيتك والعبد عبدك, وهذا مكان العائذ بك من النار, " ثم أقرّ لربك بما عملت, فإنه ليس من عبد مؤمن يقر لربه بذنوبه في هذا المكان إلا غفر الله له إن شاء الله، وتقول: "...اللهم إن عملي ضعيف فضاعفه لي, واغفر لي ما اطلعت عليه مني وخفي على خلقك"، ثم تستجير بالله من النار وتدعو لنفسك, ثم استلم الركن اليماني, ثم ائت الحجر الأسود(20).

في الحديث: فلما هبط آدم إلى الأرض طاف بالبيت، فلما كان عند المستجار دنا من البيت, فرفع يديه إلى السماء فقال: يا رب اغفر لي, فنودي إني قد غفرت لك، قال: يا رب ولولدي, قال: فنودي: يا آدم من جاءني من ولدك فباء بذنبه بهذا المكان غفرت له(21).

كما أن لولادته (عليه السلام) على الرخامة الحمراء بين الاسطوانتين, التي يستحب الصلاة عليها لمن دخل إلى الكعبة بعد الاغتسال والدعاء بعدها بالمأثور سرًا آخر, وقد عقد صاحب الوسائل بابًا لذلك, في أنه: يستحب لمن أراد دخول الكعبة أن يغتسل, ثم يدخلها بسكينة ووقار بغير حذاء, ولا يبزق ولا يمتخط، ويدعو بالمأثور, ويصلى

بين الأسطوانتين على تلك الرخامة ركعتين(22).

وقد قال بعض العلماء الذين وفقوا للدخول إلى الكعبة: قد وفقت لدخول الكعبة المشرفة, فرأيت بلاط الكعبة المشرفة يميل إلى البياض, عدا بلاطة واحدة حمراء بين الباب والركن اليماني من داخل الكعبة, وهي علامة لموضع ولادة أمير المؤمنين (عليه السلام)(23).

يتبع =

1- ذخائر العقبى، أحمد بن عبد الله الطبري، مكتبة القدسي القاهرة: ص55.

2- سفينة البحار، دار الأسوة، قم: 5/312.

3- بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط2: 97/189.

4- بحار الأنوار، ط2 مؤسسة الوفاء، بيروت: 35/112.

5- مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب، المطبعة الحيدرية: 2/20.

6- أعيان الشيعة، دار التعارف بيروت: 4/219.

7- بشارة المصطفى لمحمد بن علي الطبري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط1، ص373.

8- مشارق أنوار اليقين، الحافظ رجب البرسي، مؤسسة الأعلمي، ط 1419، تحقيق السيد علي عاشور، ص 171.

9- رسائل في حديث رد الشمس للشيخ المحمودي، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم، ص6.

10- وفي رواية يزيد ابن قعنب: "خرجت في اليوم الرابع"، روضة الواعظين للنيسابوري، منشورات الرضي، قم، ص76.

11- الأمالي للشيخ الطوسي، دار الثقافة، قم، ص707.

12- رجال تركوا بصمات على جبين التاريخ، للشيخ لطيف القزويني، ص72؛ الأنوار العلوية للشيخ جعفر النقدي، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ص37.

13- منار الهدى في النص على إمامة الاثني عشر, للشيخ علي البحراني، دار المنتظر، ص299، وقد أشار لها الحر العاملي في منظومته.

14- الفضائل لابن شاذان، المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف، ص54.

15- معاني الأخبار للشيخ الصدوق، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ص77.

16- كشف الغمة للإربلي، دار الأضواء، بيروت، ط1: 1/61 -62.

17- حلية الأبرار، للسيد هاشم البحراني، مؤسسة المعارف، الإسلامية، قم: 2/58.

18- الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار صادر، بيروت:2/45.

19- ميزان الحكمة للشيخ الري شهري، مكتب الإعلام الإسلامي: 8/23-24.

20- الكافي، للشيخ الكليني، دار الأضواء: ج 4، ص405، ح5.

21- تفسير العياشي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران: 1/31.

22- وسائل الشيعة للحر العاملي، المكتبة الإسلامية، طهران، ج9، كتاب الحج، ب36 من أبواب مقدمات الطواف وما يتبعها، ص 372.

23- منار الهدى في النص على إمامة الاثني عشر، للشيخ علي البحراني، دار المنتظر، ص301.

.

تتمة مقال = ولادة أمير المؤمنين (ع) في الكعبة

الولادة في الأدب والشعر

هذه الحادثة المباركة جديرة بأن تخلّد, ولم يكن حظ الشعراء بأقل من حظ المحققين والمؤرخين في نقل هذه الفضيلة الشريفة والمزية الرفيعة، التي اختص بها إمامنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فقد هامَ الكثير من الشعراء والأدباء قديمًا وحديثًا بهذا النور الإلهي الساطع، فغرفوا من بحر فضائله (عليه السلام), وراحوا يتغنّون بحبه ويعددون فضائله، وقد تعرّض لها كثير من الشعراء المعروفين والمشهورين، نكتفي ببعض أشعارهم،

فمنهم: السيد الحميري شاعر أهل البيت عليهم السلام, حيث يقول:

وَلدَتهُ في حَـرَمِ الإلهِ وأمنِهِ	والبيتِ حيــثُ فِناؤُهُ والمسـجدُ
بَيضاءُ طاهرةُ الثيابِ كريمـةُ	طابــت وطابَ وَليدُها والمَولدُ
في ليلةٍ غـابتْ نُحوسُ نُجومها	وبَدَت مع القمر المنيرِ الأسعُدُ
ما لُفَّ في خِرقِ القوابــلِ مثلُـهُ	إلا ابـنُ آمِنَـة النَّبيُّ مُحمّــــدُ(24)

ومنهم: الشيخ حسين نجف, الذي قال في قصيدته عن الولادة:

جعـــل الله بيتـــــه لعلـــي مـــولدا لم يشـــــاركه في الولادة فيـــه	يا له عـــلا لا يضـــــاهى سيـــد الرسل لا ولا أنبيـــاها(25)

ومنهم: الميرزا إسماعيل الشيرازي, الذي قال قصيدته الموشحة في المولود المقدس:

سيد فاق علا كل الأنام شرّف الله به البيت الحرام		كان إذ لا كائن وهو إمام حين أضحى لعلاه مولدا
فوطأ تربته بالقدم		

والقصيدة طويلة وجليلة (26).

ومنهم: السيد علي النقي اللكهنوي الهندي، أحد كبار الشعراء له موشحة في الميلاد من أبياتها:

تلكم فاطمة بنت أسد ودعت خالقها الباري الصمد		أمت البيت بكرب وكمد بحشًا فيه من الوجد الضرام
قد علته قبسات اللهب		

دخلت فاطم فارتدّ الجدار إذ تجلى النور وانجاب السرار		مثلما كان ولم يكشف ستار عن سنا بدر به يجلو الظلام
والورى ينجو به من عطب...		
لم يكن في البيت مولود سواه أوتي العلم بتعليم الإله		إذ تعالى عن مثيل في علاه فغذاه دره قبل الفطام
يرتوي منه بأهنى مشرب(27)		

ومنهم: الحر العاملي الذي قال في أرجوزة له في تواريخ المعصومين (عليهم السلام):

مولده بمكة قد عُرفا على رخامة هناك حمرا فيا لها مزية علية ما نالها قط نبي مرسل	في داخل الكعبة زيدت شرفا معروفة زادت بذاك قدرا تخفض كل رتبة علية ولا وصي آخر وأول (28)

ومنهم: السيد رضا الهندي, حيث قال في ديوانه:

لما دعاك الله قدما لأن شكرته بين قريش بأن	تولد في البيت فلبيّته طهرت من أصنامهم بيته(29)

ومنها: ما قاله الشاعر عبد الباقي العمري البغدادي, في عينيته التي جاء في أولها:

أنت العلي الذي فوق العلى رفعا وأنت نقطة باء مع توحدها	ببطن مكة عند البيت إذ وضعا بها جميع الذي في الذكر قد جمعا

وقد علق السيد محمود الألوسي على هذه العينية بقوله: ((وكون الأمير كرم الله وجهه وُلد في البيت أمر مشهور في الدنيا, وذكر في كتب الفريقين السنة والشيعة, إلى أن قال: ولم يشتهر وضع غيره كرم الله وجهه كما اشتهر وضعه, بل لم تتفق الكلمة عليه، وما أحرى بإمام الأئمة أن يكون وضعه فيما هو قبلة للمؤمنين, وسبحان من يضع الأشياء في مواضعها وهو أحكم الحاكمين))(30).

ومنهم: الشاعر المسيحي بولس سلامة, في ملحمته الشعرية المسماة بـ«عيد الغدير», حيث قال في مقدمة تلك الملحمة تحت عنوان مولد علي (عليه السلام):

حرّةٌ لزّها المخاض فلاذت كعبة الله في الشدائد ترجى	بستار البيت العتيق الوطيد فهي جسر العبيد للمعبود

ثم يقول:

بَسِمَ المسجد الحرام حبوراً كان فجران ذلك اليوم فجرٌ	وتنادت حجاره للنشيد لنهارٍ وآخر للوليد(31)

هذا, وهناك الكثير من القصائد التي ذكرت الولادة الغراء، وقد أشار العلامة الأميني إلى عشرات القصائد التي نظمت في مولده الشريف(32).

يتبع =

24- مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب، المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، 2/24.

25- الغدير، دار الكتاب العربي، بيروت، 6/29.

26- الغدير، 6/31.

27- الغدير، 6/34.

28- العقيلة والفواطم، حسين الشاكري، مطبعة ستاره، قم، ص94.

29- ديوان السيد رضا الهندي، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ص25، تحت عنوان "في مدح الإمام علي (ع)".

30- الإمام علي بن أبي طالب (ع)، أحمد الرحماني الهمداني، مطبعة المنير للطباعة والنشر، طهران، ص 372؛ والغدير، ج6، من ص22.

31- عيد الغدير لبولس سلامة، المؤسسة الثقافية لهيئة أنصار الحسين(ع)، ط4، ص49.

32- الغدير، ج6، من ص28 فما بعد.

.

تتمة مقال = ولادة أمير المؤمنين (ع) في الكعبة

الحكمة والسرّ في ولادة الأمير "ع" في جوف الكعبة

لو نظرنا إلى أصغر أمر يصدر عن الله سبحانه، لوجدنا أنه يكمن فيه حكمة ربانية، بدءًا من مسألة كراهة النفخ على الطعام، مرورًا بالدخول إلى الأماكن المقدسة والمساجد بالرجل اليمنى والخروج باليسرى، وصولاً إلى عقاب القاتل والسارق والزاني.

فكيف بحادثة بهذه الأهمية تحصل في جوف الكعبة, التي كانت وما تزال موضع نظر العالم كله؟!، فإن أي حدث مهما قلّ شأنه يحصل عند الكعبة سيعلم به الناس, لأن الكعبة موضع اهتمام الجميع, وهي تعني لهم شيئًا عظيمًا قبل الإسلام وبعده. فكيف إذا كان هذا الحدث هو الولادة في جوف الكعبة، ذلك المكان المقدس، وكان الدخول من شق في حائط الكعبة لا من بابها؟!، فسيكون موضع دهشة الناس وتساؤلهم عن سرّ هذا الحدث.

ولقد تواتر نقلها بين المؤمنين في جميع سلسلة الرواة عبر العصور إلى زمان ولادته المباركة, حتى لا تجد أحدًا لم يسمع بها، والشقّ الذي حصل في جدار الكعبة حين ولادته بقي على شكل فطر في جدارها، وهو أكبر شاهد على الولادة, وآية من آيات الله لجميع خلقه، لم يستطع أحد أن يزيله على مرّ العصور، فلا بد أن هناك حكمة وسرًا وراء تلك الولادة المباركة والميمونة, فما هو هذا السر؟

ما يمكن استشرافه من ذلك السر:

إن الله تعالى جعل ولادته في الكعبة ليشرفها بتلك الولادة الميمونة, وقد أشار إلى هذا الوجه جماعة من الأعلام، منهم السيد إسماعيل الشيرازي كما مرَّ من قصيدته، ومنهم محمد مبين بن محب الله بن أحمد اللكهنوي الحنفي, حيث قال: وقد خصّه الله تعالى بهذه الفضيلة، وشرّف الكعبة بهذا الشرف، وقد أشار إلى ذلك الكثير من علمائنا(33).

ومنها: أن الله تعالى جعل ولادته في الكعبة حيث خرّ ساجدًا لله عند ولادته, مديرًا ظهره لتلك الأصنام التي كانت فوق الكعبة, والتي سيحطّمها عليّ (عليه السلام) صاعدًا على كتف رسول الله (صلى الله عليه وآله)(34).

ومنها: ما ذكره بعض علماء السنة في إحدى محاضراته: أن الله تعالى جعل ولادة علي في الكعبة, التي يتّجه إليها المسلمون خمس مرات على الأقل في اليوم, غير الاتجاه إليها عند الذبح, والصلاة على الأموات, ودفن الموتى وغيرها, حتى يلتفت المسلم إلى حقيقة علي (عليه السلام) كلما اتجه إلى الكعبة في صلاته, وحتى لا يزول ذكره من الأذهان(35).

ومنها: ما أشار إليه العقّاد بقوله: ولد علي (عليه السلام) في داخل الكعبة, وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها، فكأنما كان ميلاده ثمة إيذانًا بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها، وكاد علي أن يولد مسلمًا.. بل لقد ولد مسلمًا على التحقيق إذا نحن نظرنا إلى ميلاد العقيدة والروح، لأنه فتح عينيه على الإسلام, ولم يعرف قط عبادة الأصنام، فهو قد تربى في البيت الذي خرجت منه الدعوة الإسلامية(36).

ومنها ما ذكره بعض كبار الأعلام, عندما طرح البحث والسؤال بطريقة أخرى, حيث قال:

لا ينبغي أن يقال: ما سرّ تولد أمير المؤمنين (عليه السلام) في الكعبة, بل اللازم أن نقول: ما سرّ شرف الكعبة وهو تولده فيها؟

وقال في مقام الجواب عن هذا السرّ:

لعل سرّ هذا الرمز الإلهي والإيماء الربوبي, إشارة إلى ما بين أمير المؤمنين (عليه السلام) وبين الكعبة أعزّها الله تعالى من المناسبة، فكما أن الصلاة لا تقبل ولا تصح إلا بالتوجه إليها, فكذلك الأعمال لا تقبل إلا بالتوجه إليه, والاعتماد على الأخذ منه ومن ذريته, والتقرب إلى الله بولايتهم وولايته، فهم كعبة الأرواح وهي كعبة الأشباح، وهم كعبة الأسرار والمعاني وهي كعبة الظواهر والمباني، وهم كعبة المعارف واللطائف وهي كعبة العاكف والطائف، والغاية أن تولده سلام الله عليه في الكعبة إشارة إلى أنه هو سرّ شرف الكعبة وروح معناها وجوهر حقيقتها, ولعل الحق جل شأنه إنما شرّفها في عالم الأزل, لسابق علمه الأزلي بأنها ستكون مهبط ذلك النور الأقدم, ومحط ذلك التجلي الأعظم, وموضع بزوغ ذلك القبس الإلهي والعلم الغير المتناهي، ويشير إلى هذا ما هو

المشهور من حديث مفاخرة كربلاء والكعبة, الذي صدع وسطع منه النداء الربوبي للكعبة: قري يا كعبة وتطامني, فلولا كربلاء ومن حلّ فيها لما خلقتك ولا شرفتك... وإلا فليست الكعبة ولا المشاعر ولا البيت ولا الحجر والمروة ولا الصفا, لولا طلوع تلك الأنوار منها وسطوع هاتيك الأقمار الربوبية عنها, إلا كسائر الأماكن والبقاع(37).

والذي ينبغي أن يقال في مقام استكشاف سرّ هذه الولادة المباركة الميمونة: أن مما لا شك فيه أن هذه الولادة شرّفت الكعبة، ولكن ليست هي الحكمة الوحيدة التي أريدت من وراء تلك الحادثة العظيمة، وإلا لو كان المراد مجرد تشريف الكعبة وكفى، لزادها الله تعالى تشريفا بولادة خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله) وبقية أنبيائه على نبينا وآله وعليهم السلام, ولكن هناك حكمة أخرى من وراء جعلها موضعًا لولادة علي (عليه السلام), وهي الرحمة واللطف بالأمة من قبل الله تعالى, لمساعدة الناس على معرفة حجج الله وأوليائه، ولهذا نجد أن سنة الله تعالى عند ولادة أوليائه, هي تأييدهم ببعض الآيات التي تساعد الناس على معرفة أنبيائهم وأوصيائهم (عليهم السلام), كما حصل في حادثة خروج ماء زمزم من تحت قدمي النبي إسماعيل (عليه السلام) في ذلك الوادي غير ذي الزرع، وكما حصل للنبي موسى (عليه السلام), وقذفه بالتابوت وإلقائه في النهر تحت رعاية وعناية الله تعالى, وتربيته في بيت عدوه، وكما حصل لعيسى (عليه السلام), حيث ولد من غير أب, وتكلم في المهد صبيًا، وما حصل لنبينا محمد (صلى الله عليه وآله) عند ولادته من آيات باهرة, حيث خرج منه نور أضاء قصور بصرى في الشام, وسقطت شرفات إيوان كسرى, وخمدت نيران فارس التي كانت مشتعلة منذ أكثر من ألف سنة, وغارت بحيرة ساوه وغيرها، وكذلك الحال بالنسبة لولادة أمير المؤمنين (عليه السلام) أشرف الخلق بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله), الذي أعده الله تعالى بعد نبيه ليهتدي الناس بهديه, لا سيما وأنه بعد رحيل النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) سيفتتن الناس أشد فتنة, فلذا هم بحاجة إلى هذا اللطف وهذه الولادة, حتى يطمئنوا بعد اطلاعهم عليها وبهذه الطريقة التي حصلت بها, أن عليًا (عليه السلام) هو الذي اصطفاه الله ليكون الوصي والحجة على خلقه بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ويتأكد احتياج الناس لهذا اللطف لأنهم سيحقدون على علي (عليه السلام) في المستقبل, بسبب ما سيفعله بصناديد العرب في حروبه وغزواته التي قامت على سيفه(38).

هل ولد غير علي (ع) في الكعبة

رغم أن ولادة علي (عليه السلام) في جوف الكعبة أوضح من الشمس وأبين من الأمس، إلا أن بعض الحاقدين نسبوا هذه المكرمة - التي خصّ بها الله تعالى أمير المؤمنين (عليه السلام) - لشخص آخر, لنفي الاختصاص وللتقليل من أهمية الحادثة، فقد روى بعضهم أن حكيم بن حزام(39)هو أول من ولد في الكعبة، وأن عليًا هو أول من ولد فيها من بني هاشم(40)، بل إن بعضهم لم يشر من قريب أو بعيد لولادة علي (عليه السلام)(41), وقد رواها مسلم في صحيحه بلا سند ضمن كتاب البيع استطرادا(42).

والغريب ما ذكره ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة، قال: اختلف في مولد علي (عليه السلام) أين كان؟ فكثير من الشيعة يزعمون أنه ولد في الكعبة، والمحدثون لا يعترفون بذلك، ويزعمون أن المولود في الكعبة: حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي(43).

حيث نسب القول بولادة علي (عليه السلام) في الكعبة لأكثر الشيعة لا للشيعة قاطبة, مع أن هناك إجماعًا منهم على انحصار هذه الفضيلة بعلي (عليه السلام) دون غيره, من زمن الصدوق إلى آخر علمائنا رضوان الله عليهم, ويكفي في ذلك ما قاله المحدث النوري, من أن ولادة الإمام علي (عليه السلام) في جوف الكعبة من ضروريات مذهب آل البيت (عليهم السلام)(44).

وأما قوله: "بأن المحدثين لا يعترفون بذلك ويزعمون ولادة حكيم..."، فهو اغرب من سابقه، فقد اشتهرت هذه الولادة المباركة بين محدثي العامة، ورواها كل من المسعودي(45)، وابن المغازلي المالكي(46)، وابن طلحة الشافعي(47)، وسبط ابن الجوزي(48)، وممن جاء بعد ابن أبي الحديد: النخجواني(49)، والسكتواري البسنوي الحنفي(50)، والدهلوي الحنفي(51)، والشبلنجي(52)، وحبيب الله الشنقيطي(53)، وعلي القاري الحنفي(54).

بل إن بعضهم ادعى تواتر ولادته (عليه السلام) في الكعبة، كالحاكم في المستدرك، وهو من أشهر محدثي العامة، ويعرف حقّ المعرفة مصطلح التواتر، قال: "تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في جوف الكعبة"(55).

ولم يعترض الذهبي الشافعي - المعروف بمواقفه من أهل البيت وشيعتهم, الذي لخص المستدرك - على ادعاء التواتر من الحاكم(56).

بل إن جملة منهم صرّحوا بعدم ولادة غير علي (عليه السلام) في الكعبة, كالسبتي المعتزلي حيث قال: "لعلي كرم الله وجهه في المساجد خاصية ومزية لا يشاركه فيها أحد، وهو أنه ولد في الكعبة"(57).

والكنجي الشافعي الذي قال: "ولد أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب بمكة في بيت الله الحرام، ليلة الجمعة لثلاث عشر ليلة خلت من رجب سنة ثلاثين من عام الفيل، ولم يلد قبله ولا بعده مولود في بيت الله الحرام سواه, إكراماً له بذلك، وإجلالاً لمحله في التعظيم"(58).

والمصلي الشافعي قال: "ولد في الكعبة المعظمة ولم يولد بها سواه في طلقة واحدة"(59).

والجويني الشافعي قال: "لم يولد في الكعبة إلا علي"(60).

وابن الصباغ المالكي قال: "ولد علي عليه السلام بمكة المشرفة بداخل البيت الحرام... ولم يولد في البيت الحرام قبله أحد سواه، وهي فضيلة خصّه الله تعالى بها إجلالاً له وإعلاءًا"(61).

والصفوري الشافعي قال: "إن عليًا رضي الله عنه ولدته أمّه بجوف الكعبة شرّفها الله، وهي فضيلة خصّه الله بها، ذلك أن فاطمة بنت أسد رضي الله عنها، أصابها شدّة الطلق، فأدخلها أبو طالب الكعبة، فطلقت طلقة, فولدته يوم الجمعة في رجب سنه ثلاثين من عام الفيل"(62).

وابن خاوند شاه قال: "كانت ولادته (عليه السلام)... في جوف الكعبة...، ولم تتح هذه السعادة لأي أحد منذ بدء الخليقة إلى الغاية، وإن لصحة هذا الخبر بين المؤرخين المتحفظين على الفضائل, صيتًا لا تشوبه شبهة, وتجاوز عن أن يصحبه الشك والترديد"(63).

ومحمود بن محمد علي الشيخاني القادري الشافعي قال: "لم يولد قبله ولا بعده مولود في البيت الحرام سواه, إكرامًا له بذلك وإجلالاً لمحله في التعظيم"(64).

وابن باكثير الحضرمي الشافعي قال: "كانت ولادته بالكعبة المشرفة, وهو أول من ولد بها، بل لم يعلم أن غيره ولد بها"(65).

واللكهنوي الحنفي قال: "ولادة معدن الكرامة (عليه السلام) في جوف الكعبة، ولم يولد أحد فيها غيره، وقد خصّه الله تعالى بهذه الفضيلة, وشرّف الكعبة بهذا الشرف"(66).

ومحمد صديق خان البخاري القنوجي قال: "ولم يولد أحد غيره في هذا المكان المقدس"(67).

وغيرهم الكثير...، وهذه المصادر وغيرها موجودة في مجلة تراثنا, التي تصدرها مؤسسة آل البيت, السنة السابعة, محرم 1412, العدد (1).

فبعد كل هذه المصادر وهذا التواتر, هل يبقى أدنى شك بهذه الولادة العظيمة؟!، وهل يبقى عذر لابن أبي الحديد في هذا النقل التاريخي؟!، ثم كيف ينسب ذلك في كتابه في مثل هذه الحادثة المهمة والمشهورة من دون أدنى تدبّر وتتبّع، ولا يمكننا أن نحمل ابن أبي الحديد على الحقد والتعصّب الأعمى كغيره، ولا يسعنا إلا أن نقول: لعله أخذه من بعض المعاصرين الحاقدين ووثق بكلامه, فذكره من دون تتبّع, فسقط هذه السقطة العجيبة التي لا تُغتفر من أمثاله.

وأما الرواية في بقية المصادر، فهي إما مرسلة كما في رواية المستدرك، التي رواها عن علي بن عثام(68), والذي توفي سنة 228 (69)، فيكون بين وفاته وبين ولادة حكيم حوالي 294 سنة، وكذا رواية مصعب بن عثمان الذي روى عنه الزبير بن بكّار في جمهرة النسب, فانه توفي سنة 233 (70)، فيكون بينه وبين تولد حكيم 299 سنة، وكذا رواية مسلم حيث أوردها بلا سند.

وأما ما روي عن بعض ذوي الميول الأموية وأتباعهم, كعبد الله بن أبي سليمان, الذي روى عنه الأزرقي في أخبار مكة، فقد كان مولى لعثمان(71)، وكذا عروة بن الزبير بن العوام والد مصعب، فهو من أعوان الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان(72).

ومن هنا نعرف السرّ في دسّ رواية ولادة حكيم بن حزام في جوف الكعبة، وأن وراءها الأمويين وآل الزبير, الذين اتخذوا موقفا سلبيًا من علي (عليه السلام) بعد حرب الجمل، بل إن سياسة بني أمية كانت قائمة عن عمد وقصد إلى التصدّي لفضائل الأمام علي (عليه السلام) وتشويهها بشتى الأساليب، تلك السياسة التي عمّمها معاوية في مرسوم سلطاني جاء فيه:

"برئت الذمة ممن روى شيئاً في فضل أبي تراب وأهل بيته"(73).

ثم كتب إلى عماله في جميع الآفاق:

"إذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب، إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحب إليّ وأقر لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته"(74).

قال الرواي (علي بن محمد المدائني صاحب كتاب الأحداث): "فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها(75)، في قبال فضائل أمير المؤمنين وآل البيت (عليه السلام), وكتب التاريخ مملوءة منها, وحادثة الولادة في الكعبة من تلك الفضائل التي أرادوا التقليل من أهميتها بنسبتها إلى غيره (عليه السلام)، ولعل الذهبي قد تنبّه إلى ما في الرواية من الوهن والضعف, فحذفها من مختصره ولم يأتِ على ذكرها، ولو صحت بوجه من الوجوه لم يتركها، إذ استنفد ما لديه من حقد وعلم مقلوب, في تجريح وتضعيف وتقبيح وسب, لرواة مناقب علي وأهل بيته, وهو المعروف بتعصبه"(76).

انتهى المقال

33- وسيلة النجاة للكهنوي الحنفي، ص60.

34- الفضائل لابن شاذان، المطبعة الحيدرية، النجف، ص54.

35- عبد الفتاح عبد المقصود, من محاضرة له في مدينة قم المقدسة, عن سرّ ولادة الأمير (ع) في الكعبة.

36- المجموعة الكاملة، العبقريات الإسلامية للعقاد، دار الكتاب اللبناني، بيروت: 2/35.

37- جنة المأوى للشيخ كاشف الغطاء، مطبعة شفق تبريز، ص305-307.

وفي كامل الزيارات، ابن قولويه، ص 450 ح675: بسنده عن الصادق قال: إن ارض الكعبة قالت من مثلي وقد بني بيت الله على ظهري أتاني الناس من كل فج عميق، وجعلت حرم الله وأمنه. فأوحى الله إليها أن كفّي وقرّي ما فضل به فيما أعطيت به أرض كربلاء إلا بمنزلة الإبرة غرست في البحر فحملت من ماء البحر، ولولا تربة أرض كربلاء ما فضلتك، ولولا من تضمنه أرض كربلاء لما خلقتك ولا خلقت البيت الذي به افتخرت، فقرّي واستقرّي وكوني دنيا متواضعًا ذليلاً مهينًا غير مستنكف ولا مستكبر لأرض كربلاء، وإلا سخطت بك وهويت بك في نار جهنم.

راجع مجمع النورين - الشيخ أبو الحسن المرندي - ص 188- 189 طبعة حجرية. والهداية الكبرى للحسين بن حمدان الخصيبي، ط4، مؤسسة البلاغ،بيروت، لبنان، سنة 1991.

38- أشار إلى مضمون هذا الوجه العلامة المحقق السيد جعفر مرتضى في "مختصر مفيد"، المجموعة 5، ص49-55.

39- هو: حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وعمته زوجة النبي خديجة بنت خويلد، وأمه أم حكيم فاختة بنت زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصي، دخل في الإسلام في عام الفتح عندما كان النبي (ص) في طريقه لفتح مكة، شارك قريش في حرب النبي يوم بدر ولكنه فرّ منها على راحلة عبد الرحمان بن العوام بن خويلد، وقد اشتهر قسمه "لا والذي أنجاني يوم بدر (تاريخ دمشق 10/97-99)، كان مولده قبل عام الفيل بـ 13 سنة, وتوفي سنة 54 هجرية في أيام معاوية, وعاش 120 سنة، 13 سنة قبل عام الفيل، و40 سنة إلى البعثة، و13 سنة إلى الهجرة، فتصبح 66 سنة، و54 بعد الهجرة, فتكون 120 سنة, (أسد الغابة: 20/40-42).

40- أخبار مكة في قديم الزمان وحديثه، محمد بن إسحاق الفاكهاني، دار الخضر، بيروت، ط2: 3/226-236.

41- كالزبير بن بكار في جمهرة النسب، تحقيق محمد محمود شاكر، القاهرة، ص353؛ وأخبار مكة لمحمد بن عبد الله الأزرقي، دار الأندلس، مكة المكرمة: 1/174.

42- صحيح مسلم، دار الفكر، بيروت: 5/11.

43- شرح نهج البلاغة، ط إسماعليان، قم، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1: 1/14.

44- اللؤلؤ والمرجان للمحدث النوري، ص163.

45- مروج الذهب للمسعودي، دار الأندلس، بيروت: 2/349.

46- المناقب لابن المغازلي، ص6.

47- مطالب السؤل لابن طلحة، 69.

48- تذكرة الخواص لابن الجوزي، 10.

49- تجارب السلف للنخجواني، 37.

50- محاضرة الأوائل للبسنوي، ط الآستانة، 120.

51- إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء للدهلوي، ط باكستان: 2/251.

52- نور الأبصار للشبلنجي، ص85.

53- كفاية الطالب في فضائل علي ابن أبي طالب للشنقيطي، ص37.

54- شرح الشفا لعلي القاري، 1/150؛ والسيرة الحلبية للحلبي الشافعي، 1/154، 3/405.

55- المستدرك: 3/550.

56- تلخيص المستدرك على الصحيحين للذهبي: 3/550.

57- المراتب للسبتي، ص49.

58- كفاية الطالب للكنجي، ص406 وص407.

59- النعيم المقيم للمصلي الشافعي، ص129.

60- فرائد السمطين للجويني: 1/425.

61- الفصول المهمة لابن الصباغ، ص13.

62- نزهة المجالس للصفوري، ط القاهرة، 2/204، عن شرح إحقاق الحق، منشورات مكتبة المرعشي، قم: 7/489.

63- روضة الصفا في آداب زيارة المصطفى لابن خاوند، 2.

64- الصراط السوي للقادري، 152، نسخة المكتبة الناصرية، الهند, عن مجلة تراثنا، ج26، السنة السابعة، محرم 1412 هـ, عدد1.

65- وسيلة المآل للحضرمي، 282.

66- مرآة المؤمنين للكهنوي، طبعة الهند، 21؛ وسيلة النجاة للكهنوي، ص 60.

67- تكريم المؤمنين بتقويم مناقب الخلفاء، الراشدين للقنوجي، 99.

68- المستدرك، 3/549.

69- الكاشف في معرفة من له رواية في كتب الستة للذهبي، دار القبلة للثقافة الإسلامية جدة، 2/44.

70- الفهرست لابن النديم، 160.

71- تهذيب التهذيب لابن حجر، 5/246.

72- تاريخ الطبري، 2/421.

73- بحار الأنوار، العلامة المجلسي، مؤسسة الوفاء، ط2، 33/191؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد؛ دار إحياء الكتب العربية: 11/44.

74- بحار الأنوار: 33/192.

75- شرح نهج البلاغة، ط إسماعليان، قم، 11/45.

76- مجلة تراثنا السنة السابعة، محرم 1412 العدد 1/36.

الهوامش

* مبلّغ ديني ومدرّس في الحوزة العلمية.

مبيت علي(ع)في فراش النبي(ص)

د. يحيى الشامي

مبيت علي (ع) في فراش النبي (ص)

د. يحيى الشامي *

لما راح الإسلام يقوى بثلّة من الرجال الأشداء، أمثال حمزة وأبي طالب، عمَيّ النبي (ص)، كان ذلك في بدء الدعوة.. "ولما رأت قريش أن أصحاب رسول الله (ص) - الذين هاجروا إلى الحبشة - قد نزلوا بلدًا أصابوا به أمنًا وقرارًا، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم"، وحماهم، وأن جماعة من أنصار الأوس والخزرج في يثرب قد فتنوا بالدين الجديد وراحوا يروجون له في ظهرانيهم، وأن محمدًا (صلى الله عليه وآله) لم يتراجع عن دعوته أبدًا ولو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في شماله، ثارت ثائرة قريش، فاجتمع الجحاجحة منها، وائتمروا بينهم "أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب، على أن لا يُنكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئًا، ولا يبتاعوا منهم، وكتبوا ذلك في صحيفة علّقوها في جوف الكعبة توكيدًا على أنفسهم"([1]).

فعلوا هذا كيدًا للإسلام، وتكذيبًا للنبي(صلى الله عليه وآله)، وتضييقًا عليه وعلى من صدّق دعوته من عشيرته الأقربين، فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثًا، فيما النبي ورهطه من بني هاشم وبني المطلب بالشِّعب المسمى بشعب أبي طالب، يتعرّضون لشتى أنواع القهر والعسف والأذى، ما يردّ عنهم ذلك ولا يخفّف منه سوى أبي طالب عمّ النبي الذي كان له عضدًا وناصرًا وحرزًا، إذ كنت تراه يصول ويجول بين الصفين ذودًا عن النبي متهدّدًا، متوعدًا أئمة الكفر حينًا، منبّهًا ناصحًا حينًا آخر، مخاطبًا إياهم بالقول:

أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثرى	ويصبحَ من لم يجنِ ذنبًا كذي الذنب
فلسنا وربّ البيت نسلم أحمدًا	لعرّاء من عضّ الزمان ولا كرب
ولسنا نملّ الحرب حتى تملنا	ولا نشتكي ما قد ينوب من النكب([2])

أما كاتب الصحيفة، وهو منصور بن عكرمة، فشلّت يده، وأما الصحيفة فأرسل الله عليها الأرضة، فأكلت ما فيها إلا ما كان يدل على اسم الله تعالى فلم تأكله الأرضة، آية من آياته سبحانه، فلما علم النبي بذلك عن طريق جبرائيل، كلّف عمه أبا طالب أن يخرج من الشعب فيأتي الحرم، فيعلم قريشًا بأمر الصحيفة، فما ازدادوا إلا كفرًا وعنادًا، "قائلين له: إنما تأتوننا بالسحر والبهتان"([3]).

وأما أبو طالب، فاختاره الله إليه، كان ذلك قبل مهاجر النبي إلى المدينة بثلاث سنين، ما دفع بقريش إلى أن تنال من رسول الله من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب، فخرج عليه الصلاة والسلام إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، فما زاده أهل الطائف إلا رهقًا، كان ذلك في سنة خمسين من مولده الشريف([4])، فالتجأ إلى الله بالدعاء قائلاً:

"اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدوّ ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصَلُح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحلّ عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك"([5]).

ثم إن النبي (صلى الله عليه وآله) انصرف من الطائف راجعًا إلى مكة، فراح يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، فآمن بعضُهم، وكفر بعضهم الآخر، وإن من الذين عرض عليهم الإسلام من القبائل، فأبوا، بني كليب، وبني حنيفة، وبني عامر، وإن من الذين عرض عليهم الدعوة إلى الإسلام فآمنوا وصدّقوا رهطًا من الخزرج، من أهل المدينة، كانوا ستة أنفار، "فلما قَدِم هؤلاء إلى قومهم، ذكروا لهم رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ودَعَوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبقَ دارٌ من دور المدينة إلا وفيها ذكر من رسول الله، حتى إذا كان العام المقبل، وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، من الأوس والخزرج، فلقوا النبي بالعقبة الأولى، فبايعوه على بيعة النساء"([6])، ثم كانت العقبة الثانية، وفيها بايع رسول الله ثلاثة وسبعون رجلاً، وامرأتان، وكان النبي قبل بيعة العقبة لم يؤذَن له في الحرب، ولم تُحلل له الدماء، ما أغرى قريشًا بالمزيد من العصيان لأمر الله، والإصرار على اضطهاد الذين اتبعوا النبي من المهاجرين، فساموهم عذابًا، ونفيًا لهم في كل وجه، إلى أن أذن الله لنبيّه - وقد بايعته الأنصار على النصرة له، وإيواء من اتّبعه من المسلمين - في الحرب، فأمر أصحابه ومن كان معه بمكة بالخروج إلى المدينة، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وكان سبقهم إليها أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسود المخزومي، ثم تبعه عامر بنُ ربيعة، ثم عبد الله بن جحش الأسدي، وغيرهم من الرجال، أما النسوة فكان فيهنّ "زينب بنت جحش، وأم حبيب بنت جحش، وجذامة بنت جندل، وغيرهنّ...." ([7])

ثم تتابع نزول المهاجرين على المدينة، بأمر من النبي، فرارًا من عتوّ مشركي قريش وأحلافهم، نذكر منهم طلحة بن عبيد الله، وصهيب بن سنان، وحمزة بن عبد المطلب، وزيد بن حارثة، وعبيدة بن الحارث، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وعثمان بن عفان، ومصعب بن عمير بن هاشم، وأبا حذيفة بن عتبة، وسالمًا مولاه، وغيرهم، ولم يبقَ مع النبي في مكة سوى أبي بكر بن أبي قحافة، وعلي بن أبي طالب، منتظرًا الإذن بالهجرة واللحاق بمن سبق([8]).

تفرّق المهاجرون، أوائلهم وأواخرهم، وبأمر من النبي (صلى الله عليه وآله) في الأمصار، وتلقّفتهم بعض القبائل، لكنّ معقلهم الأساس كان يَثْرب حيث لقوا من الأوس والخزرج خاصة كل ترحاب، الأمر الذي أغاظ مشركي مكة وأئمة الكفر من قريش، فتداعى هؤلاء إلى التشاور فيما بينهم، حذَرَ خروج النبي من مكة، فاجتمعوا في دار الندوة المحاذية للكعبة، وهي الدار التي كانت لقصي بن كلاب، وإن فيهم عتبة، وشيبة، وأبا سفيان، والنضر بن الحارث، وأبا جهل بن هشام بن الحارث، وأمية بن خلف، وأبا البختري بن هشام، وربيعة بن الأسود، وحكيم بن حزام بن خويلد، فاقترح بعضهم أن يحبسوا النبي في الحديد، ويغلقوا عليه الباب، فيصيبه ما أصاب الشعراء من قبله من الهلاك، فسفّه هذا الرأي إبليس الذي حضر ندوتهم بصورة شيخ نجديّ، فاقترح بعضهم الآخر أن ينفوا النبي من أرضهم، فاعترض إبليس قائلاً: لو فعلتم ذلك لحلّ على حيّ من أحياء العرب، فيغلب عليهم بحلاوة منطقه، وحسن حديثه، ثم يسير بهم إليكم، حتى يطأكم، ويأخذ أمركم من أيديكم([9]).

لا هذا ولا ذاك، فما الحلّ إذًا، وكيف التخلّص من هذا المسمى محمدًا (صلى الله عليه وآله)، الذي جاء يسفّه آلهة قريش، مزريًا عليها عبادتها للأصنام والأوثان؟

الحلّ، تجده عند كبير عتاة قريش، وأحد ألدّ أعداء النبي (صلى الله عليه وآله)، تجده عند أبي جهل الذي اقترح على مشيخة قريش أن يأخذوا من كل قبيلة فتى نسيبًا، ثم يُعطوه سيفًا، ثم يقوم هؤلاء جميعًا بضرب محمدٍ (صلى الله عليه وآله) ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فإن هم فعلوا ذلك تفرّق دمه في القبائل وبطون قريش، فيعجز بنو هاشم عن حرب هذه البطون مجتمعةً، أو يرضون بالدية، أو العقل، رأيٌ مصيب من وجهة نظر هؤلاء المستكبرين، لكنه من الخطورة والفظاعة والهول، ومن المكر الذي ما إنه لتزول منه الجبال، على جانب كبير.. رأي استحسنته مشيخة قريش، واستحسنه الرجل النجدي، عدوّ الله الذي هو إبليس، فقال: "القول ما قال الرجل، هذا الرأي"([10]).

أجل، هذا هو الرأي، ويا للخبث والمكيدة، والمؤامرة...! رأي يتمثّل بتصفية محمدٍ (صلى الله عليه وآله) تصفية جسدية، تنوشه السيوف، سيوف غدر قبائل العرب وبطون قريش دفعة واحدة، فيذهب دمه هدرًا، أو يتفرّق في سائر العرب، وإذ ذاك يُلفي بنو عبد مناف الذين منهم هاشم، فعبد المطلب، فعبد الله، يُلفون أنفسهم قاصرين عن إدراك الثأر، عاجزين عن الانتقام، أو هم يرضون بالدية، فيخلو لِكُبّار قريش وجهُ آلهتهم التي كانوا يعبدون..

لو قدّر لهذا الأمر الذي ما قدّره الله، وحاشى لله، لو قُدّر ذلك، والإسلام في مهده، والرسالة لمّا تكتملْ، والوحي لمّا ينقطع، لما كان ثمّة إسلام، ولا رسالة، ولكان ارتدّ كثير ممن آمن بالنبي من المهاجرين الأوائل، ومن الذين نصروا هذا الدين، وتاليًا لما كان تحقّق حلم البشرية في دولة الإسلام التي هي خاتمة الدول، مبشرًا بها الله سبحانه أنبياءه من قبل، وعباده الذين يرثون الأرض، من الصالحين..

لو قدّر ذلك، ومعاذ الله، فأيّ معنى لشريعة ناقصة لم تستوفِ غايتها، وأي معنى لكتاب سماوي لم تكتمل فصوله وآياته؟ ماذا؟ المؤامرة كبيرة، ومشركو هذه البلدة الظالمِ أهلُها مصرّون على تصفية محمد (صلى الله عليه وآله)، وعلى التخلص منه بأي ثمن من الأثمان.

أوقات عسيرة حرجة، ما كان أشد وطأتها على المؤمنين وعلى رسوله، الذي ما كان الله ليذره هدفًا سهل المنال لكيد الكائدين، ومكر الماكرين، فها هو جبرائيل يأتي النبي، بأمرٍ من الله سبحانه، فيأمره بالخروج سرًّا من مكة إلى المدينة، وبعدم المبيت في فراشه تلك الليلة، أسرّ النبي (صلى الله عليه وآله) بالخبر إلى ابن عمّه عليّ، ويا لسرور علي لمّا كلّفه النبي بالمبيت على فراشه من حيث لا تعلم قريش أن عليًا هو البائت على الفراش، بل هو محمد (صلى الله عليه وآله) بشخصه ولحمه ودمه، تمامًا على حاله التي كان يكون عليها من قبل...

وكدأب علي في كل موقف من مواقفه، فإنه لم يتردّد، ولم يختلج، ولم يتهيّب، بل صدَع بما أمره الحبيب محمد (صلى الله عليه وآله)، فنام تلك الليلة على فراش الحبيب، متّشحًا ببُرده الأخضر، غير وَجِلٍ ولا عابئٍ بالخطر المحدق به، وبالسيوف المشرعة التي سوف تهوي عليه، لا محالة، تحملها زنودٌ من فتية بطون العرب من قريش، ويا للخطب!

بات عليٌّ على فراش النبي، ولم يساوره شكٌّ في أنه إن قُتل تلك الليلة، فإن في ذلك نجاة رسول الله من سيوف المشركين، وهذا هو المهم في نظر علي، أن يَسْلَم رسول الله، وأن تظهر كلمة الله، ولسان حاله يردد:

سأسعى لوجه الله في نصر أحمد ** نبي الهدى المحمودِ طفلاً ويافعا([11])

يتبع =

---

[1] - السيرة النبوية لابن هشام، ج1، ص350.

[2] - نفسه، ج1، ص353.

[3] - انظر: الكامل لابن الأثير، ج1 ص606.

[4] - التنبيه والإشراف للمسعودي، ص200.

[5] - انظر: السيرة لابن هشام: 1/420

[6] - انظر: السيرة النبوية: 2/293.

[7] - نفسه: 1/472

[8] - انظر: السيرة النبوية: 1/480.

[9] - انظر: الكامل: 2/3.

[10] - نفسه: 2/4.

[11] - هذا البيت من جملة أبيات قالها الإمام علي عليه السلام مجيبًا والده أبا طالب عليه السلام حين طلب منه أن يبيت في فراش النبي (صلى الله عليه وآله)، راجع مناقب أهل البيت عليهم السلام للمولى حيدر الشيرواني ص61، تحقيق محمد الحسون، طبعة سنة 1414هـ، مطبعة المنشورات الإسلامية؛ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: 14/64.

.

تتمة مقال - مبيت علي (ع) على فراش النبي (ص)

بات عليّ على فراش النبي في تلك الليلة، فلما جاء القوم الذين تمالؤوا على قتل النبي، وبأيديهم السيوف يرصدون طلوع الفجر، ليقتلوه جهارًا،على مرأى من بني هاشم، فيذهب دمه هدرًا، "وأتاهم آتٍ، فقال للملأ: ماذا تنتظرون؟ قالوا محمدًا (صلى الله عليه وآله)، قال: خيّبكم الله، لقد خرج عليكم ولم يترك أحدًا منكم إلا وجعل على رأسه التراب، فوضع الملأ أيديهم على رؤوسهم، فرأوا التراب، وجعلوا ينظرون، فيرون عليًا نائمًا، وعليه بُرد النبي، فيقولون إن محمدًا لنائم، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام من الفراش، فعرفوه، فلما سألوه عن النبي، قال: لا أدري، أمرتموه بالخروج فخرج"([1]).

يا للتضحية والفداء، ويا لعلي، ما كان أشجعه، وأثبت جنانه، وأصدقَ إيمانه! ويا لهذه المنقبة النبي لم يشركه فيها - وبحسب تعبير الشيخ المفيد - أحد من أهل الإسلام، ولا اختص بنظير لها على حال، ولا مقارب لها في الفضل بصحيح الاعتبار([2]).

منقبة لعلي ما كان أعظمها وأشرفها، كيف وقد وهب الإمام نفسه لله، وشراها من الله، وبذلها دون النبي، طاعةً له ولله، طمعًا في الفوز برضى الله، وذودًا عن رسول الله، وحرصًا على تثبيت دعائم دين الله، وإظهار شريعة الله.. منقبة ما كان الله إلا لينوّه بها في محكم كتابه العزيز، فها هو الوحي يتنزّل على النبي، وهو في الطريق من مكة إلى المدينة، من بعد أن مكث قليلاً في غار ثورٍ، بعيدًا عن عيون المشركين، ها هو الوحي يتنزّل عليه خاصًا عليًا بالآية التي تقول **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ}**([3])، شرفًا ما بعده شرف، وفضيلة ليس يعدلها فضيلة، تقول الرواية التي تحدّثت عن أسباب نزول هذه الآية الشريفة أن عليًا لما نام على فراش النبي، قام جبرائيل عند رأسه، وميكائيل عند رجليه، وجبرائيل ينادي: بخٍ، بخٍ، من مثلك يا ابن أبي طالب، يباهي الله بك الملائكة!؟ ([4]).

وفي تفسير الرازي أن عليًا لما بات على فراش النبي، والمشركون يحيطون به من كل جانب ظنًا منهم أنه النبي، كان الله سبحانه، يواخي بين جبرائيل وميكائيل، قائلاً: (إني آخيت بينكما، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة؟ فاختار كلاهما الحياة، فأوحى الله إليهما: ألا كنتما مثل علي بن أبي طالب، آخيت بينه وبين محمد (صلى الله عليه وآله)، فبات على فراشه ليفديه بنفسه، ويؤثره بالحياة.. اهبطا إلى الأرض، فاحفظاه من عدوّه.. فنزلا، فكان جبرائيل عند رأسه، وميكائيل عند رجليه، وجبرائيل ينادي: بخٍ بخٍ، من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة، فأنزل الله تعالى الآية الآنفة الذكر([5])، وهكذا تمت كلمة ربك، وليحقّ الحق بكلماته ولو كره الكافرون.

وبخصوص هذه المنقبة التي لا يُدرَكُ علو مقامها وعظيم شأنها، فما أحسن أن نشير إلى ما أورده الشريف المرتضى في فصوله المختارة من عيون ومحاسن كلام الشيخ المفيد رحمه الله، وكان الشيخ قد أفرد بحثًا قابل فيه بين تعبّد إسماعيل النبي بالصبر على ذبح أبيه إبراهيم له، ثم مدحه بذلك وتعظيمه له بالقول **{إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ}**([6])، وبين تعبّد أمير المؤمنين علي بالمبيت على فراش النبي إذعانًا لأمر رسول الله ولأمر أبيه أبي طالب، يقابل الشيخ المفيد رحمه الله، بين التعبّدين فيرى أن محنة أمير المؤمنين أعظم من محنة إسماعيل، وأن الفضل الذي حصل لأمير المؤمنين يرجح على كل فضيلة، ذلك أن إبراهيم قال لابنه إسماعيل **{فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}**([7]).

استسلم إسماعيل لهذه المحنة مع علمه بإشفاق الأب على ابنه، وظنّه أن المقال خرج معه مخرج الامتحان له في الطاعة، دون تحقق العزم على إيقاع الفعل، فيزول كثير من الخوف معه، وترجى السلامة عنده، فيما عليّ (عليه السلام)، كان يعلم أن قريشًا أغلظ الناس على رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وأقساهم قلبًا([8]).

وأيًا يكن، وبعيدًا عن مناقشة هذا الرأي، فذلكم هو مبيت الإمام علي على فراش النبي، كان ذلك في أخريات أيام إقامة النبي بمكة، وتحديدًا في شهر ربيع الأول من السنة التي كانت فيها الهجرة.. وذلكم هو إمامكم الذي قدّم أروع أمثلة الفداء والتضحية، في الذود بالنفس عن النبي، والذبّ عنه، في جميع المواقف والمشاهد، كيف وهو الذي ما عُرف عنه قطّ أنه نكص عن الامتثال لأمرٍ من أوامر رسول الله (صلى الله عليه وآله)، يشهد على ذلك العدوّ والصديق، أليس هو القائل: "ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله) أني لم أردّ على الله ولا على رسوله ساعة قط، ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال، وتتأخر فيها الأقدام، نجدةً أكرمني الله بها، ولقد قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله) وإن رأسه لعلى صدري، ولقد سالت نفسه في كفي فأمررتها على وجهي، ولقد وليت غسله (صلى الله عليه وآله) والملائكة أعواني، فضجّت الدار والأفنية، ملأ يهبط وملأ يعرج، وما فارقت سمعي هينمة منهم، يصلّون عليه حتى وارياه في ضريحه"([9]).

فالصلاة والسلام على النبي، وعلى أمير المؤمنين علي، وعلى آل النبي، وبورك ثرىً ضمّ فراش النبي، ومن بات تلك الليلة على فراش النبي.

انتهى

---

[1] - انظر: الكامل: 2/4؛ وانظر السيرة: 1/485.

[2] - الإرشاد: 1/53

[3] - سورة البقرة:207.

[4] - انظر: مجمع البيان، الطبرسي: 2/174؛ وانظر حديث مبيت علي على فراش النبي في المصادر التالية: التفسير الكبير للفخر الرازي: 15/155؛ ومسند أحمد: 1/348؛ والمستدرك على الصحيحين: 3/4؛ وأسد الغابة: 4/19؛ وتاريخ اليعقوبي: 2/39؛ وتاريخ بغداد: 13/191.

[5] - تفسير الرازي: 2/189.

[6] - سورة الصافات:106.

[7] - سورة الصافات:102.

[8] - انظر: الفصول المختارة: 2/61.

[9] - نهج البلاغة: 1/97.

مصادر البحث ومراجعه

- مجمع البيان للطبرسي، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1961.

- السيرة النبوية لابن هشام، دار الكنوز الأدبية، بيروت.

- نهج البلاغة، تحقيق الشيخ محمد عبده، دار المعرفة، بيروت.

- الفصول المختارة للسيد المرتضى، دار المفيد، ط2، بيروت، 1993.

- التنبيه والإشراف للمسعودي، دار صعب، بيروت.

- الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار الكتب العلمية، ط3، بيروت، 1998.

- الإرشاد للشيخ المفيد، دار المفيد، ط2، بيروت، 1993.

الهوامش

* دكتوراه دولة في الآداب.

أهمية العمل في الإسلام

السيد علي السيد حسين يوسف مكي

السيد علي السيد حسين يوسف مكي*

العمل من أبرز الأمور التي أفرد لها الإسلام مساحة واسعة في التشريع على صعيد المعاملة، وعلى صعيد الأخلاق، وذلك لأن العمل بذاته أساس ودعامة مهمة في النظام الاقتصادي والبناء الاجتماعي، وركيزة فاعلة في التطوير الإنساني نحو الأفضل والأسمى في عالم الفرد والمجتمع.

والإسلام حين جعل له هذه الأهمية في الحياة الإنسانية وأنظمتها، فلأنه لا وسيلة سواه يتمكن الإنسان بها من تحقيق مبادئ الاستخلاف في الأرض وعمارتها، والاستفادة من كل الموارد الطبيعية المخزونة في الأرض، وبالتالي الوصول إلى العبادة المطلقة التي يتسامى بها الإنسان عند الله سبحانه، كما ورد في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وآله) (العبادة سبعون جزءًا، أفضلها طلب الحلال)([1]).

ولذلك تجد الحديث عن العمل يستأثر جانبًا كبيرًا من الأخبار الشريفة الواردة عن أهل بيت العصمة (عليهم السلام)، هذا فضلاً عن الآيات الكريمة الواردة في ذلك.

ويخلص الفقهاء السابقون رضوان الله عليهم والمتأخرون حفظهم الله، في فتاواهم التي تذكر في أبواب المعاملات في الفقه، من خلال التنبيه على ضرورة تعلّم أحكام التجارة،وعلى التعرف على أحكام البيع وغيره من الأحكام التي تتعلق بالعمل في العديد من أبواب الفقه مثل الإجارة والتجارة والسقاية والزراعة والسلف والمضاربة وبيع الصرف وغيرها، يخلصون إلى دور العمل والى ضرورة الإبداع وإظهار القدرة، وبذل الجهد والطاقة لاستغلال كل ما يحقّق للإنسان نظامه واستقراره وتوازنه في الحياة.

والعمل في مفهومه واضح جدًا، إنه الجهد والحركة التي بذلها الإنسان من أجل تحقيق وتأمين احتياجاته ومتطلباته على اختلافها، مادية ومعنوية، ونتيجة العمل والجهد هو الإنتاج.

وعندما يتفاعل الجهد البشري مع العناصر الأولية المتوفرة في كل المجالات يتحقق الإنتاج المناسب، فالعامل في البناء أو التجارة أو النجارة أو الفلاحة - مثلاً - يحقق إنتاجًا ماديًا، والعالم في الطب والهندسة يحقق خدمات معينة تسمى إنتاجًا أيضًا، والكاتب والعالم وغيرهم يحققون عطاءًا معينًا، يسمى إنتاجًا أيضًا، وهكذا.

إن المهم في الحياة الإنسانية أن تتوفّر لدى الإنسان المشاعر الحية لضرورة السعي والعمل - إذ هو الذي يجسّد شخصيته وإنسانيته كما تتجسد بمفاهيم أخرى - وأن لا يكون بعيدًا عن هذه المفاهيم وكسولاً خاملاً.

وقد أوجبت الشريعة المقدسة السعي على الإنسان في طلب الرزق وتأمين احتياجاته لكفاية نفسه وكفاية عياله ومتعلقيه، وجعلته مظهرًا من مظاهر العلاقة الإيمانية والارتباط والصلة بالله سبحانه، حيث يجسّد الإنسان بذلك التوكّل على الله والاعتماد عليه في كل شؤونه وأموره، لأن الله سبحانه هو المالك الحقيقي لكل ما في هذا الوجود، وبيده خزائن السماوات والأرض، والإنسان عاجز عن كل شيء إلا ما يسّره الله له وأوجده، ولذلك حين يسعى ويعمل ويتحرك في طلب المعاش، فإنه يتحرك ويسعى من خلال أمر الله سبحانه والتوكّل عليه.

وبهذا العامل الروحي والأخلاقي، استطاع الإسلام أن يحقّق للإنسان السعادة والخير والأمن والاستقرار، في حين فشلت المدنية والحضارة الحديثة والتطور الصناعي المذهل، والتكنولوجيا الفائقة أن تحقق شيئًا من ذلك كما هو مشاهد في كثير من الأمور التي تعاني منها البشرية، كالأخلاق، حيث ترى الفساد المطلق فيها، وعدم الاستقرار، حيث ترى الاضطراب والفوضى والاعتداءات تفوق العدّ والوصف،و كثير من نوازع الشرّ والفساد التي تتزايد في كل يوم وفي كل مكان ولم تستطع الحضارة أن توقف مدّه ولا أن تحصر سوءه.

إن الإسلام يتحرّك من خلال الواقع الإنساني والتكوين الإنساني، ولذلك أوجد له ما يتلاءم وطبيعته وظروفه واحتياجاته بشكل كامل، بل هو يتعامل معه من خلال هذا الواقع ومن خلال أحاسيسه ومشاعره، ولذلك كانت التشريعات التي يتخذها ويقرّرها علاجًا ناجعًا، وإذا كان البعض أو الكثير لا يؤمن بهذه المقولة لأن تجربته لم توصله إلى الواقع والحق الذي نقوله، فليس ذلك لأن الإسلام ليس على طبق الواقع، بل لأن الإسلام وتشريعاته لم توافق ما يريدون،فحكموا عليه بما يقولون.

وحين نستعرض ما ورد في القرآن والسنة والشريفة، نجد أن التأكيد والحثّ كما أشرنا يستأثر بالجانب الأكبر منها، ويؤكّد على أن العمل والسعي من الأسس المهمة للإنسان في حياته وفي جميع شؤونه الروحية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية.

أما ما ورد في القرآن الكريم:

فقد قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}([2]).

وقال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}([3]).

وقال تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ}([4]).

وقال تعالى: {وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ}([5]).

أما السنّة:

فقد ورد في الحديث: (ليس منا من ترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنيا)([6]).

وورد أيضًا: (يصبح المؤمن ويمسي على ثكل، خير له من أن يصبح أو يمسي على حرب، فنعوذ بالله من الحرب) ([7]).

وفي الحديث: (لا خير فيمن لا يحب جمع المال من حلال يكفّ به وجهه ويقضي به دينه ويصل به رحمه) ([8]).

ولأهمية العمل والسعي موضوعيته، فالأخبار تصفه بأنه عبادة، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (العبادة سبعون جزءًا، أفضلها طلب الحلال)، وقال أبو الحسن موسى (عليه السلام): (من طلب هذا الرزق من حلّه ليعود به على نفسه وعياله، كان كالمجاهد في سبيل الله)([9])، وتمضى السنّة أيضًا في الحث والتأكيد على العمل والسعي، فتجعلهما من أسباب ووسائل العزّة والكرامة للإنسان، وذلك لأن الإنسان الذي يسعى من أجل تحصيل معاشه وتأمين احتياجاته ويعمل جاهدًا للاستغناء بعمله وكدّه وجهده عن أي طلب وسؤال من الناس يكون عزيزًا كريمًا على الناس وينظر إليه بنظرة الإكبار والتقدير والاحترام، ورد في الحديث أن أبا عبد الله (عليه السلام) قال لمولى له: (يا عبد الله احفظ عزّك؟، قال: ما عزّي جعلت فداك؟ قال: غدوك إلى سوقك وإكرامك نفسك)([10]).

وإذا ما استعرضنا بقية الأخبار التي تؤكد ضرورة العمل والسعي، نجد بأن التشريع الإسلامي لا يظهر أهمية وقيمة العمل في الحياة الإنسانية فقط، وإنما يجسّد الاعتبارات والطاقات والإمكانات عند الإنسان، ويعطيها الفاعلية وأنها تنمو وتزيد بالعمل، ورد في الحديث عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (التجارة تزيد في العقل)([11])، وقال (عليه السلام): (ترك التجارة ينقص العقل)([12]).

وفي حديث عن معاذ بن كثير بياع الأكيسة، قال: (قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): إني قد هممت أن أدع السوق وفي يدي شيء، فقال (عليه السلام): إذًا يسقط رأيك، ولا يستعان بك على شيء)([13])..

يتبع =

---

[1] - وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت، 17/21، باب 4 من أبواب مقدمات التجارة، ح6.

[2] - سورة الملك:15

[3] - سورة القصص: من الآية77

[4] - سورة الجمعة: من الآية10

[5] - سورة الرحمن: 10-11-12

[6] - وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت، 17/76، باب 28 من أبواب مقدمات التجارة، ح1.

[7] - وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت، 17/76، باب 6 من أبواب مقدمات التجارة، ح8

والثكل: فقدان الأهل والأحبة والأولاد؛ والحَرَب: نهب مال الشخص وتركه فقيرًا لا مال له.

[8] - وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت، 17/33، باب 7 من أبواب مقدمات التجارة، ح1.

[9] - وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت، 17/21، باب 4 من أبواب مقدمات التجارة، في استحباب طلب الرزق ووجوبه مع الضرورة، ح41.

[10] - وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت، 17/13، باب1 من أبواب مقدمات التجارة، ح13.

[11] - المصدر السابق نفسه، نفس الباب، الحديث 9.

[12] - وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت، 17/13، باب1 كراهة ترك التجارة، من أبواب مقدمات التجارة، ح1.

[13] - المصدر السابق نفسه، نفس الباب، الحديث 7.

.

تتمة مقال - أهمية العمل في الإسلام

إن الإنسان في هذا الكون جزء من المجموعة الكونية التي أوجدها الله سبحانه، ونظام هذا الكون قائم على الحركة المنتظمة المستمرة، ولا يمكن للانسان أن يكون على خلاف المجموعة هذه، فالعمل والسعي والحركة من قوامها، وأهم اعتباراتها، وما القوى الكامنة فيه والطاقات المودعة فيه، والامكانات المزدحمة في داخله إلا ليتمكن من التعامل والتفاعل مع القوى الطبيعية الموجودة في هذا الوجود، وفي هذه الأرض، والتي هي لصالح الإنسان، ويستفيد منها، والآيات الكريمة تشير إلى هذه الحقيقة،

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً}([1]).

وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ}([2]).

وقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}([3]).

وقال تعالى: {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ}([4]).

فالإنسان من خلال هذه الآيات الكريمة جزء من هذا الوجود، وهو بجملته لصالحه وخيره وخدمته، ينتفع منه في حاجاته وشؤونه، والتي لا يمكن الاستفادة منها إلا من خلال استعمال تلك القوى الكامنة فيه والطاقات المودعة لديه، فلا بد من أن تتفاعل تلك القوى مع ما هو موجود في هذا الوجود واستغلالها بالجهد المباشر لتصبح شيئًا محسوسًا وملموسًا يشعر بفائدته.

فالمطر الذي ينزل من السماء ويكون أنهارًا وينابيع، على الإنسان أن يستفيد منه ويأخذه لحاجته من شرب وسقي وغير ذلك، والأشجار الموجودة في الغابات وغيرها يمكن أن يستفيد منها خشبًا لحوائجه، ويمكن أن يكيّف هذه الأشياء الموجودة في الأرض إلى مواد يستفيد منها أكثر وأكثر.

كل هذا تأكيد على ضرورة العمل والسعي والحركة، ولا بد للإنسان أن يعمل، ولا يمكن أن يكون خاملاً متقاعسًا كسولاً عن ضرورياته وحاجاته، وإلا يَفَسد أمره وتصبح حياته عديمة الجدوى والنفع والفائدة والأثر، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): (إن الأشياء لما ازدوجت، ازدوج الكسل والعجز، فنتجا بينهما الفقر)([5]).

وعن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال: (عدو العمل الكسل)([6]).

وفي الحديث عن أبي الحسن موسى (عليه السلام): (إياك والكسل والضجر، فإنك إن كسلت لم تعمل، وإن ضجرت لم تعطِ الحق) ([7]).

بل الكسول مبغوض، فقد ورد في الحديث عن أبي جعفر (عليه السلام) أنه قال: (إني لأبغض الرجل -أو أبغض للرجل - أن يكون كسلانًا عن أمر دنياه، ومن كسل عن أمر دنياه فهو عن أمر آخرته أكسل)([8]).

وفي حديث آخر عن أبي جعفر (عليه السلام): (إني أجدني أمقت الرجل متعذّر المكاسب، فيستلقي على قفاه ويقول اللهم ارزقني، ويدع أن ينتشر في الأرض ويلتمس من فضل الله، فالذَرَّة - وهي أصغر النمل - تخرج من جحرها تلتمس رزقها) ([9]).

إن الأهمية في هذه الأحاديث التي وردت بتعابير متعددة للنهي عن الكسل وترك العمل أنها تشير إلى أن الكسول لا يمكن أن يُقيَّم بالقِيَم والاعتبارات الإنسانية - مثل العقل والإيمان والهدى والعلم -، بل إن هذه الأمور من دون جهد ومن دون عمل لا تعطي ثمارها ولا تؤكّد نفسها.

وعلى هذا الأساس تجد الأحاديث أبعدت الكسول والمتواني عن العمل والمتهاون فيه عن قبول الدعاء واستجابته، فقد ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (إن أصنافًا من أمتي لا يستجاب لهم دعاؤهم، رجل يدعو على والديه، ورجل يدعو على غريم ذهب له بماله فلم يكتب عليه ولم يشهد عليه، ورجل يدعو على امرأته

وقد جعل الله عز وجل تخلية سبيلها بيده، ورجل يقعد في بيته ويقول يا رب ارزقني، ولا يخرج، ولا يطلب الرزق، فيقول الله عز وجل له: ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب والتصرف في الأرض بجوارح صحيحة، فتكون قد أعذرت فيما بيني وبينك في الطلب لاتباع أمري، ولكيلا تكون كلاً على أهلك... الحديث)([10]).

وورد في الحديث: (أن قومًا من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) لما نزلت - هذه الآية - **{وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ}**([11])، أغلقوا الأبواب وأقبلوا على العبادة وقالوا قد كُفينا، فبلغ ذلك النبي (صلى الله عليه وآله) فأرسل إليهم وقال لهم: ما حملكم على ما صنعتم؟ قالوا: يا رسول الله تكفّل - الله - لنا بأرزاقنا، فأقبلنا على العبادة، فقال (صلى الله عليه وآله): إنه من فعل ذلك لم يستجب له، عليكم بالطلب)([12]).

والله سبحانه يقول **{نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}**([13]).

ويقول تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}([14]).

فقد قسّم الله سبحانه الرزق بين عباده وأمرهم بطلبه، وليس من المعقول أن يأمر الله بالسعي والطلب ثم يُخلف وعده وهو أصدق القائلين وأصدق من وعد.

أن العمل من ضروريات الحياة وبدونه لا قيمة للحياة، وهو عماد الإنسان في صلاح أمره وانتظام حياته، ولا مفرّ منه ولا خلاص، لأنه الشيء الوحيد الذي يجسّد المبادئ الإنسانية والإيمانية والمفاهيم الروحية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية.

إنه كلّ شيء في الحياة، وعلى هذا الأساس، ولقيمته وأهميته وشرفه، لم يفسح المجال أمام الإنسان بالتهاون به إطلاقًا.

انتهى

---

[1] - سورة البقرة: من الآية29

[2] - سورة يّـس:71-72-73

[3] - سورة إبراهيم، من الآية 32 إلى الآية 34

[4] - سورة الحجر:19الى الآية 21

[5] - الكافي، الكليني، دار الكتب الإسلامية، ط3: 5/86، باب كراهية الكسل، حديث 8. وفي بعض المصادر "نتج بينهما"، (والنِتَاج بالكسر: اسم يشمل وضع البهائم من الغنم وغيرها، وإذا ولي الإنسان ناقة أو شاة ماخضًا حتى تضع قيل نتجها نتجًا - مجمع البحرين مادة نتج)

[6] - الكافي، الكليني: 5/85، باب كراهية الكسل، حديث1.

[7] - نفسه: 5/85، باب كراهية الكسل، حديث5.

[8] - نفسه: حديث4.

[9] - وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت: 17/30، باب استحباب الاستعانة بالدنيا على الآخرة، حديث 4.

[10] - وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت: 17/27، باب 5، كراهية ترك طلب الرزق وتحريمه مع الضرورة، حديث 6.

[11] - سورة الطلاق، من الآية 2 والآية 3.

[12] - وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت: 17/27، باب 5، كراهية ترك طلب الرزق وتحريمه مع الضرورة، حديث 7.

[13] - سورة الزخرف: من الآية32.

[14] - سورة الملك:15.

الهوامش

* آية الله السيد علي مكي رئيس الطائفة الإسلامية الشيعية في سوريا.

الزيارة الجامعة

الشيخ محمد سند

الزيارة الجامعة الكبيرة.. فوق الشبهات

من محاضرة لآية الله الشيخ محمد سند بقلم السيد علي جلال الشرخات *

تعتبر الزيارة الجامعة الكبيرة إحدى أهم الزيارات التي رويت لنا عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، وتمثّل هذه الزيارة العظيمة خلاصة عقائد مذهب أهل البيت (عليهم السلام)، وتُبرز المقامات الحقّة للأئمة المظلومين، وتبين منزلتهم العظيمة عند الله.

فقد اشتملت الزيارة الجامعة على عبارات عظيمة شريفة، هي فوق كلام سائر المخلوقين، ودون كلام الخالق، لا يستوعبها عقلٌ بتمام كنهها.

هذا.. وقد أمرنا أهل البيت (عليهم السلام) بعدم رد أي حديث أو رواية أو إنكارها حين لا نستطيع فهمها، وأن علينا أن نردّها لأهل الذكر وأولي الأمر وعيبة علم الله..

ولكن رغم ذلك، نرى بعض الذين يُتحفظ على آرائهم الاعتقادية، من الذين لم يستطيعوا استيعاب عُمق مضامين هذه الزيارة العظيمة، يحاولون ردّها وإنكارها بشتى الطرق، فمرة قالوا: إن سندها ضعيف! وأخرى: إنها من أخبار الآحاد! وثالثة: إن مضامينها تخالف القرآن الكريم!

وقد جاءت هذه المقالة -التي هي جزء من كتاب مُعدّ للنشر- ردًا على بعض هذه المقولات التي أثيرت حول خصوص سند هذه الزيارة، من جهة أن في سلسلة سندها موسى بن عمران النخعي، الذي لم يوثّقه علماء الرجال.

وقبل التعرّض لرأينا في الراوي المذكور ينبغي تقديم أمرين:

الأمر الأول: إن علوّ مضامين الزيارة وجزالة ألفاظها يدلاّن على أنها في مصافّ أعالي متون الزيارات الصادرة منهم (عليهم السلام)، وهي بذلك لا تحتاج إلى سند لتصحيحها، بل قوّة متنها دالة على انتسابها إلى أهل بيت العصمة (عليهم السلام)، وقد ذكر ذلك الكثير من العلماء كما سيأتي التعرّض لشهاداتهم في مظانّها فانتظر.

الأمر الثاني: حول التقليد والاجتهاد في علم الرجال.

نحن وإن كنا نحترم جهود علماء الرجال السابقين، ونقدّر تضحياتهم المبذولة في سبيل تنقيح أسانيد هذا التراث الروائي الضخم الذي وصلنا عن آل محمد (عليهم السلام)، إلا أننا نعتبر أن توثيق أو تضعيف الرواة استنادًا إلى روّاد علم الرجال تقليدٌ وليس اجتهادًا، وإذا أراد الإنسان أن يبني عقيدته وتراثه على التحقيق والاجتهاد فلا

مناص له من البحث والسبر عن منشأ التوثيق والتضعيف، ليصل إلى العمل بالرواية أو تركها عن اجتهاد في أحوال الرواة لا عن تقليد للسابقين، وهذا أمر بالغ الخطورة، لأننا حين نأخذ بتوثيق المتقدمين وتضعيفاتهم أخذ المسلمات، فإننا في الحقيقة نصادر التراث ونجعل عليه أوصياء لم يجعلهم الدين، لأن الجرح والتعديل يقوّض أو يبسط في التراث الروائي المنسوب للنبي والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين)، فنحن من ناحية لا نستخفّ بأقوال الرجاليين بحيث نغضّ الطرف عن آرائهم في الرواة دون أن نعطي أية قيمة علمية لجرحهم وتعديلهم، ولكننا من ناحية أخرى لا نقلّدهم في جرحهم وتعديلهم، بل نعتبر كلامهم في أحوال الرواة مجرد معطيات ومؤشرات، نظير البحث التاريخي - وعلم الرجال اشتق من علم التاريخ - فالباحث التاريخي لا يقف عند أقوال المعاصرين حول شخصية تاريخية أو حدث معين، فضلاً عن غير المعاصرين، بل يبحث وينقّب في زوايا التاريخ ومواقفه ليستخلص رأيًا علميًا مدعومًا بالأدلة حول حوادثه ورجاله.

فيجب أن لا نتعامل مع أقوال الرجاليين وكأنها وحي منزل، خصوصًا فيما يتعلق بالجرح والطعن، لأن جملة من التضعيفات - سيما عند العامة -، ناشئة من مبنى اعتقادي معين - كما هو واضح للخبير المتمرّس في علم الرجال - كأن لا يتفق الراوي معه في العقيدة المعيّنة، فيسارع إلى تكذيبه وإلى الطعن فيه وجرحه والنيل منه والوقيعة فيه بكل ما أمكن، وقد صرّح بذلك الكثيرون من علماء الدراية والرجال.

ومن نماذج التحقيق في علم الرجال عند علمائنا، نذكر الوحيد البهبهاني الذي يعتبر المجدّد في الحوزات العلمية في القرن الثاني عشر، فإنه لم يأخذ بنصوص علماء الرجال من أتباع أهل البيت (عليهم السلام)، سواء من جانب الجرح أو من جانب التعديل، بل درس كلا الأمرين بإمعان وتدبّر، ملاحظًا منشأ كل منهما، وفي المقابل نجد من الرجاليين من يكون مجتهدًا في تمييز المفردات الرجالية عن المشتركات، وتمييز طبقة الراوي، وتمييز مشايخه وتلامذته، وتمييز الكتب، لكنه ما إن يصل إلى حال الراوي جرحًا أو تعديلاً حتى نراه مقلدًا في ذلك، وهذه الظاهرة نلاحظها عند العامة بصورة آكد وأشد.

والخلاصة: أن التقليد في علم الرجال يعني جعل الوصاية على التراث الديني لثلّة قليلة، وهو أمر خطير لأنه يفضي إلى سدّ باب الاجتهاد والتحقيق والتدقيق في علم الرجال.

سند الزيارة ووثاقة الراوي موسى بن عمران

قدّمنا القول بضعف سندها بموسى بن عمران النخعي، ونحن نرى عدم صحة هذا الاعتراض، بل على العكس من ذلك لدينا قرائن عدّة تدل على وثاقته وجلالة قدره، نذكرها تباعًا:

الأول

موسى الراوي لأغلب روايات عمه النوفلي

أن عمه هو الحسين بن يزيد النوفلي، والنوفلي وثقه الشيخ الطوسي في العدة والسيد الخوئي وجماعة كثر غيرهما، لقول الشيخ الطوسي في العدة: **[عملت الطائفة بروايات السكوني]**([1])، والراوي لأغلب روايات السكوني هو الحسين بن يزيد النوفلي، فيقتضي ذلك توثيق الطائفة له، مضافًا لتعبير النجاشي بأن الحسين بن يزيد النوفلي: **[نوفل النخع]**([2]) أي وجيه قبيلة النخع، والموجه فيهم، أو الذي يذكر بالجميل والحسن. وقبيلة النخع من القبائل الشيعية الكبيرة في الكوفة، فمع هذا الوصف تظهر مكانة موسى بن عمران النخعي، حيث أن عمه هو النوفلي، بل وأستاذه، فقد روى عن عمه أكثر من مائتي رواية، مما يُظهر تتلمذه عليه، واختصاصه به. فضلاً عن روايته عن غيره فهو كثير الرواية في كتب الأصحاب المعتمدة.

الثاني

روايات النوفلي جلّها في المعارف

مضافًا إلى أن متون الروايات التي يرويها عن عمّه جلّها في المعارف، وهي صحيحة المضمون، مستقيمة المعنى، وفق أصول وقواعد معارف المذهب عند المتأخرين، بل إن جملة منها مما يدل على رِفعة مقامه وطول باعه في المعارف وتضلّعه فيها، مما يشفّ عن كونه من فرسان الميدان، وأوتاد الرواة، وحَمَلة هذه الأسرار، وسنذكر بعضها فقط، ونحيل القارئ إلى مصادر بعضها الآخر ليكتشف ذلك بنفسه.

بعض متون رواياته في المعارف:

(1) روى محمد بن أبي عبد الله الأسدي الكوفي، عن موسى بن عمران، عن عمه الحسين بن يزيد النوفلي، عن الحسن بن علي بن أبي حمزة، حديث **(**تفسير قوله تعالى: **{وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} -الزخرف:28-** بالإمامة، جعلها الله عز وجل في عقب الحسين (عليه السلام) باقية إلى يوم القيامة).([3])

(2) حدثنا علي بن أحمد بن موسى (رحمه الله) قال: حدثنا محمد بن أبي عبد الله الكوفي قال: حدثنا موسى بن عمران النخعي، عن عمه الحسين بن يزيد، عن علي بن أبي حمزة عن يحيى بن أبي القاسم قال:

(سألت الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) عن قول الله عز وجل **{ألم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} -البقرة، الآية 2و3-** فقال: المتقون شيعة علي (عليه السلام) والغيب فهو الحجة الغائب. وشاهد ذلك قول الله عز وجل: **{وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي**

مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ} -يونس:20- فأخبر عز وجل أن الآية هي الغيب، والغيب هو الحجة، وتصديق ذلك قول الله عز وجل: **{وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً} -المؤمنون:50-** يعني حجة)([4]).

(3) حدثنا الشيخ الفقيه أبو جعفر (رحمه الله) قال حدثنا محمد بن أحمد السناني قال حدثنا محمد بن أبي عبد الله الكوفي عن موسى بن عمران النخعي عن عمه الحسين بن يزيد النوفلي عن علي بن سالم عن أبيه عن ثابت بن دينار قال: (سألت زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) عن الله جل جلاله هل يوصف بمكان؟

فقال: تعالى الله عن ذلك.

قلت: فلِمَ أسرى بنبيه محمد (صلى الله عليه وآله) إلى السماء؟

قال: ليريه ملكوت السماء وما فيها من عجائب صنعه وبدائع خلقه.

قلت فقول الله عز وجل **{ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى}**.

قال: ذاك رسول الله (صلى الله عليه وآله)، دنا من حجب النور فرأى ملكوت السماوات ثم تدلى (صلى الله عليه وآله)، فنظر من تحته إلى ملكوت الأرض حتى ظن أنه في القرب من الأرض كقاب قوسين أو أدنى).**([5])**

(4) حدثنا الشيخ الجليل أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى ابن بابويه القمي (رضي الله عنه)، قال: حدثنا علي بن أحمد بن موسى الدقاق (رضي الله عنه)، قال: حدثنا محمد بن أبي عبد الله الكوفي، قال: حدثنا موسى بن عمران النخعي، عن عمه الحسين بن يزيد النوفلي، عن علي بن أبي حمزة، عن يحيى بن أبي إسحاق، عن الصادق جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن أبيه (عليهم السلام)، قال:

(سئل النبي (صلى الله عليه وآله): أين كنت وآدم في الجنة؟

قال: كنت في صلبه، وهبط بي إلى الأرض في صلبه، وركبت السفينة في صلب أبي نوح، وقذف بي في النار في صلب أبي إبراهيم، لم يلتق لي أبوان على سفاح قط، ولم يزل الله عز وجل ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة هاديًا مهديًا حتى أخذ الله بالنبوة عهدي، وبالإسلام ميثاقي، وبيَّن كل شيء من صفتي، وأثبت في التوراة والإنجيل ذكري، ورقى بي إلى سمائه، وشق لي اسمًا من أسمائه الحسنى، أمتي الحمادون، فذو العرش محمود وأنا محمد)**([6])**.

(5) حدثنا علي بن أحمد بن محمد رضي الله عنه قال: حدثنا محمد بن أبي عبد الله الكوفي قال: حدثنا موسى بن عمران النخعي، عن عمه الحسين بن يزيد، عن الحسن بن علي بن أبي حمزة، عن أبيه قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام): (لأي علة دفنت فاطمة (عليها السلام) بالليل ولم تدفن بالنهار؟ قال: لأنها أوصت أن لا يصلي عليها

الرجلان)([7]).

وغيرها من الروايات و هي دالة على روايته غوامض المعارف و لُبابها([8]).

الثالث

اعتماد الأعلام على رواياته

و قد اعتمد رواياته، - لا سيما في المعارف - أعلام الطائفة كالكليني في الكافي، والصدوق في "التوحيد وعيون أخبار الرضا"، وغيرهما، بل وقع في مشيخة الصدوق في أكثر من ثمانين موردًا.

وقد روى عن:

1 - عمه الحسين بن يزيد النوفلي (ثقة).

2 - إبراهيم بن الحكم بن ظهير.

3 - الحسين بن سعيد الأهوازي (ثقة جليل).

4 - صفوان بن مهران الجمال (ثقة).

وروى عنه:

1 - محمد بن جعفر أبو عبد الله الكوفي الأسدي (ثقة)([9]).

2 - محمد بن يحيى العطار (ثقة).

3 - محمد بن موسى بن المتوكل (ثقة على الأصح).

4 - علي بن أحمد بن محمد بن عمران الدقاق (ترضى عليه الصدوق).

5 - علي بن عبد الله الوراق (ترضى عليه الصدوق).

6 - محمد بن أحمد السناني (ثقة).

يتبع =

---

[1]- عدة الأصول ج 1 ص 380.

[2]- رجال النجاشي ص 77.

[3] - المعاني ص 131 ـ 132.

[4]- كمال الدين وتمام النعمة ص 17.

[5]- علل الشرائع ج 1 ص 131 ـ 132، أمالي الصدوق ص 214.

[6]- أمالي الصدوق ص 723.

[7]- علل الشرائع ج 1 ص 185.

[8]- **راجع**: التوحيد ص 164؛ **كمال** الدين وتمام النعمة ص17- 257 - 258 -259؛ **أمالي** الصدوق ص 561 - 755 -768 - 375 - 560 -731؛ **المعاني** ص 131 - 132؛ **من لا يحضره** الفقيه ج 4 ص 179؛ **البحار** ج39 ص302.

[9]- قال الشيخ (ره) في الغيبة ص 415: "وقد كان في زمان السفراء المحمودين أقوام ثقات ترد عليهم التوقيعات من قبل المنصوبين للسفارة من الأصل. منهم أبو الحسين محمد بن جعفر الأسدي(ره)".

.

تتمة مقال - الزيارة الجامعة

الرابع

صحة سند الزيارة إليه

إن سند الزيارة الجامعة الكبيرة صحيح إلى موسى بن عمران، قال الصدوق (رحمه الله): حدثنا علي بن أحمد بن محمد بن عمران الدقاق رضي الله عنه ومحمد بن أحمد السناني وعلي بن عبد الله الورّاق والحسين بن إبراهيم بن أحمد بن هشام المؤدِّب قالوا: حدثنا محمد بن أبي عبد الله الكوفي وأبو الحسين الأسدي قالوا: حدثنا محمد بن إسماعيل المكي البرمكي قال: حدثنا موسى بن عمران النخعي..

الخامس

سؤاله للإمام الهادي (ع) وبيان الإمام له:

سؤاله للإمام الهادي (عليه السلام) بقوله: [علّمني يا بن رسول الله (ص) قولاً بليغًا كاملاً إذا زرت واحدًا منكم]، وجواب الإمام (عليه السلام) له ببيان هذا المتن الجليل، هو نفسه دليل على مكانته في معرفة مقامات الأئمة وأسرارهم، وبأن لهم شؤونًا متحدةً، ومقاماتٍ متبعةً، وأن نور الإمامة ومقام الخلافة شيء واحد، وذلك شبيه بمقالة العلماء في رواية عمر بن حنظلة.

السادس

توثيق الأعلام للنخعي واعتمادهم على الزيارة

قال المامقاني (قده) (المتوفى سنة 1351 هـ) فيه: [وفي روايته لها دلالة واضحة على كونه إماميًا صحيح الاعتقاد، بل في تلقين مولانا الهادي (عليه السلام) له مثل هذه الزيارة المفصّلة المتضمّنة لبيان مراتب الأئمة (عليهم السلام)، شهادة على كون الرجل من أهل العلم والفضل، فالرجل من الحسان مقبول الرواية وإهمالهم ذكره في كتب الرجال غير قادح فيه] ([1]).

ووثّقه السيد الخوئي (قده) (المتوفى سنة 1413 هـ) لروايته عن تفسير القمي([2]).

أقوال العلماء في سند ومتن الزيارة:

يقول المولى محمد تقي المجلسي (قده) في شرح الفقيه (المتوفى سنة 1070هـ): [والزيارات لأمير المؤمنين ولباقي الأئمة كثيرة... أحسنها الزيارة الجامعة التي سنذكرها مشروحة].([3])

وقال أيضًا: [وأنها أكمل الزيارات وأحسنها، بل بعد تلك الرؤيا أكثر الأوقات أزور الأئمة (عليهم السلام) بهذه الزيارة وفي العتبات العاليات ما زرتهم إلا بهذه الزيارة]([4]). وذلك بعد مكاشفته اللطيفة التي سنأتي على ذكرها في ختام البحث.

ويقول العلامة المجلسي (قده) (المتوفى سنة 1111 هـ): [إنّما هي أرقى الزّيارات الجامعة متنًا وسندًا وهي أفصحها وأبلغها].([5])

ويقول السيد عبد الله شبر (قده) (المتوفى سنة 1220هـ): [لا يخفى على أولي البصاير النقّادة، وأرباب الأذهان الوقّادة، وذوي العقول السليمة، وأصحاب الأفهام المستقيمة، أن الزيارة الجامعة الكبيرة أعظم الزيارات شأنًا، وأعلاها مكانة ومكانًا، وأن فصاحة ألفاظها وفقراتها وبلاغة مضامينها وعباراتها، تنادي بصدورها من عين صافية نبعت عن (ينابيع الوحي) والإلهام، وتدعو إلى أنها خرجت من ألسنة نواميس الدين ومعاقل الأنام، فإنها فوق كلام المخلوق وتحت كلام الخالق الملك العلام، قد اشتملت على الإشارة إلى جملة من الأدلة والبراهين المتعلقة بمعارف (أصول الدين) وأسرار الأئمة الطاهرين ومظاهر صفات (رب العالمين)، وقد احتوت على رياض نضرة

وحدائق خضرة، مزينة بأزهار المعارف والحكمة، محفوفة بثمار أسرار أهل بيت العصمة، وقد تضمنت شطرًا وافرًا من حقوق أولي الأمر الذين أمر الله بطاعتهم، وأهل البيت الذين حثّ الله على متابعتهم، وذوي القربى الذين أمر الله بمودتهم، وأهل الذكر الذين أمر الله بمسألتهم، مع الإشارة إلى آيات فرقانية، وروايات نبوية، وأسرار إلهية، وعلوم غيبية، ومكاشفات حقية، وحكم ربانية...] **إلى أن قال:[** إعلم أن هذه الزيارة قد رواها جملة من أساطين الدين، وحملة علوم الأئمة الطاهرين، وقد اشتهرت بين الشيعة الأبرار اشتهار الشمس في رابعة النهار، وجواهر مبانيها وأنوار معانيها دلائل حق وشواهد صدق على صدورها عن صدور حملة العلوم الربانية، وأرباب الأسرار الفرقانية، المخلوقين من الأنوار الإلهية، فهي كسائر كلامهم الذي يغني فصاحة مضمونه وبلاغة مشحونه عن ملاحظة سنده، كنهج البلاغة والصحيفة السجادية وأكثر الدعوات والمناجات].([6])

استدلال العلماء بالزيارة واستشهادهم بها:

ما فتئ العلماء يعتمدون على الاستشهاد بالزيارة الجامعة، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر:

قال السيد شرف الدين الحسيني (قده) (المتوفى نحو سنة 965 هـ) في تأويل الآيات الواردة في سورة الغاشية **{إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}([7])**.

[عن جميل بن دراج قال: قلت لأبي الحسن (عليه السلام): أحدِّثهم بتفسير جابر؟

قال: لا تحدِّث به السفلة فيذيعوه، أما تقرأ **{إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}؟**

قلت: بلى.

قال: إذا كان يوم القيامة وجمع الله الأولين والآخرين، ولأنا حساب شيعتنا، فما كان بينهم وبين الله حكمنا على الله فيه فأجاز حكومتنا، وما كان بينهم وبين الناس استوهبناه فوهبوه لنا، وما كان بيننا وبينهم فنحن أحق من عفا وصفح.

ويؤيد ذلك ما جاء في الزيارة الجامعة المروية عن الهادي (عليه السلام) وهو قوله: وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم.

ومعنى هذا التأويل: الظاهر: أن الضمير في إلينا وعلينا راجع إلى الله تعالى.

وأما الباطن: فإنه راجع إليهم (صلوات الله عليهم)، وذلك لأنهم ولاة أمره ونهيه في الدنيا والآخرة، والأمر كله لله، فلمن شاء من خلقه جعله إليه، ولا شك أن رجوع الخلق يوم القيامة إليهم، وحسابهم عليهم، فيُدخلون وليَّهم الجنة، وعدوهم النار، كما ورد في كثير من الأخبار أن أمير المؤمنين (عليه السلام) قسيم الجنة والنار]**([8])**.

وقال السيد صدر الدين الطباطبائي (قده) (المتوفى سنة 1154هـ): [وقال (صلى الله عليه وآله): (أنا وعلي من شجرة واحدة، وسائر الناس من شجر شتى)... ولعل المعنى بالواحدة ليس المعنى الذي تفيده التاء بمعنى الوحدة الظاهرية التي مناطها التشخيص الوحداني بحسب الوجود العيني، بل الواحدة الذاتية الواقعية المعنوية، التي تشبه أن يكون مضمونه ما في الزيارة الجامعة عطفًا على ما عامله (أشهد) (وأن أرواحكم ونوركم وطينتكم واحدة طابت وطهرت بعضها من بعض) وعلى هذا قوله (عليه السلام): (شتى) وصف لشجرة باعتبار الكثرة المقابلة لهذا الوحدة فلا يضادّه التاء**]**([9]).

ويقول الشيخ الأنصاري (قده) (المتوفى سنة 1280هـ): [والكلام في الخوارج يظهر مما ذكرنا في الناصب فإنهم أشد النواصب، مضافا إلى إطلاق المشرك عليهم في بعض الأخبار، كما في قوله (عليه السلام) في خارجي دخل عليه (إنه مشرك والله)، وقوله (عليه السلام) في الزيارة الجامعة (ومن حاربكم مشرك) مع أن نجاستهم إجماعية] ([10]).

وقال الملا هادي السبزواري (قده) (المتوفى سنة 1300هـ): [وقال (صلى الله عليه وآله): (أول ما خلق الله روحي أو عقلي أو نوري)، وقال (كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين)، والمراد بالأبرار أصحاب اليمين، وبالأخيار المقربون، لكنهما كالظرف والمجرور، وكالفقير والمسكين، إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، فمن موارد الاجتماع مثل ما ههنا ما في الزيارة الجامعة الكبيرة (وأنتم نور الأخيار وهداة الأبرار)، وبمعناه أيضًا قولهم (حسنات الأبرار سيئات المقربين)...] ([11])

قال المولى محمد التبريزي الأنصاري (قده) (المتوفى سنة 1310هـ) في معنى تسمية الزهراء (عليها السلام) بالمشكاة، في تفسيره لآية النور: [.. والمشكاة هي فاطمة الزهراء (عليها السلام)، وهذا المصباح يوقد من شجرة الحقيقة المحمدية، وهي الزيتونة المباركة لبركة آثارها وعدم تناهي أطوارها، وفي الزيارة الجامعة: (السلام على محالّ معرفة الله، ومساكن بركة الله، ومعادن حكمة الله... إلخ). فهي مباركة لإفاضة جميع الفيوضات التشريعية والتكوينية منها، وهي الشجرة الكليّة النابتة في مقام (أو أدنى)، وبيداء الإبداع والاختراع، وصحراء المشيئة والإرادة، لتشعب وجوه تعلّقاتها بذرّات الوجود التي لا تتناهى في مراتب الإمكان شعوبًا وقبائل وهي أصل البركة وفرعها: (إن ذكر الخير كنتم أوله وآخره وأصله وفرعه)... إلخ]([12]).

ويقول المحقق الأصفهاني (قده) (المتوفى سنة 1360هـ): [إن إطاعتهم (عليهم السلام) في أوامرهم الشرعية إطاعة بالذات للآمر، وإطاعة بالعرض لمن جرى على لسانه أمره تعالى، والإطاعة التي تكون إطاعة لهم بالذات وتكون إطاعة له تعالى بالعرض - من حيث إنهم منسوبون إليه المدلول عليها بقوله (عليه السلام): (من أطاعكم فقد أطاع الله) - هي إطاعتهم في أوامرهم الشخصية، فالنبوة والإمامة حيثية تعليلية لوجوب إطاعة أوامرهم

الشخصية، وما ورد في باب إطاعتهم (عليهم السلام) أولى بالشمول لمثل هذه الإطاعة من إطاعة أوامرهم الشرعية، فإنها إطاعة الأمر الإلهي بالحقيقة، ولزومها بديهي لا يحتاج إلى المبالغة في الإلزام بها كما لا يخفى[([13]).

وقال السيد الخوئي (قده) في معرض استدلاله على أن حرمة الغيبة مشروطة بالإيمان: [... ويدل عليه أيضًا قوله (عليه السلام) في الزيارة الجامعة: (ومن جحدكم كافر). وقوله (عليه السلام) فيها أيضًا: (ومن وحّده قَبِل عنكم). فإنه ينتج بعكس النقيض، أن من لم يقبل عنكم لم يوحّده بل هو مشرك بالله العظيم...][([14]).

و يقول (قده) أيضًا: [وقد ورد في الزيارة الجامعة: (ومن وحّده قبل عنكم) فإنه ينتج بعكس النقيض، أن من لم يقبل منهم فهو غير موحد لله سبحانه... والأخبار الواردة بهذا المضمون وإن كانت من الكثرة بمكان، إلا أنه لا دلالة لها على نجاسة المخالفين، إذ المراد فيها بالكفر ليس هو الكفر في مقابل الإسلام، وإنما هو في مقابل الإيمان كما أشرنا إليه سابقًا][([15]).

ويقول السيد الكلبايكاني (المتوفى سنة 1414 هـ): [وظاهرها كفرهم مطلقًا سواء كان عن علم أو عن جهل مركب. ومنها رواية الفضل قال: (دخل على أبي جعفر (عليه السلام) رجل محصور عظيم البطن، فجلس معه على سريره فحيّاه ورحب به، فلما قام قال: هذا من الخوارج كما هو، قال: قلت: مشرك؟ فقال: مشرك والله مشرك). والمراد من المشرك هو الكافر وقد مر ذلك الخبر في أوائل الكتاب. وفى الزيارة الجامعة: ومن حاربكم مشرك[([16]).

يتبع =

---

[1]- تنقيح المقال ج3 ص 257؛ ولاحظ أيضًا مستدركات علم الرجال للشيخ علي النمازي الشاهرودي، ط1، 1412هـ، مطبعة شفق، طهران، ج1 ص8..

[2]- معجم رجال الحديث ج 20 ص 66.

[3]- روضة المتقين ج5 ص424.

[4]- مفاتيح الجنان ص 626، روضة المتقين ج5 ص452

[5]- مفاتيح الجنان ص 626

[6]- الأنوار اللامعة في شرح الزيارة الجامعة ص 29 ـ 31.

[7] - سورة الغاشية آية 25-26

[8]- تأويل الآيات ج 2ص 788 ـ 789.

[9]- شرح دعاء الندبة ص 129.

[10]- كتاب الطهارة ج 2 ص 358.

[11]- شرح الأسماء الحسنى ج 1ص 203.

[12]- اللمعة البيضاء في شرح خطبة الزهراء ÷ ص 151 ـ 152، و كذلك استشهد بها ص 522.

[13]- حاشية المكاسب ج 2 ص 382.

[14]- مصباح الفقاهة ج 1 ص 504.

[15]- كتاب الطهارة ج 2 ص 84.

.

تتمة مقال - الزيارة الجامعة

قصة تبدي لزوم المواظبة على هذه الزيارة:

ومما يستأنس به ما نقله المحدّث النوري (قده) بسند صحيح،حيث قال:

[قدم النّجف الأشرف منذ سبع عشرة سنة تقريبًا التّقيّ الصّالح السّيد أحمد ابن السّيد هاشم ابن السّيد حسن الموسوي الرّشتي أيّده الله وهو من تجّار مدينة رشت، فزارني في بيتي بصحبة العالم الرّباني والفاضل الصّمداني الشّيخ علي الرّشتي].

إلى أن قال: [فلمّا نهضا للخروج نبّهني الشّيخ إلى أنّ السّيد أحمد من الصّلحاء المسدّدين ولمح إلى أنّ له قصّة غريبة].

ثم ذكر أنه صادف السيد ثانيًا في مدينة الكاظمين، فسأله عنها، فأخبره أنه قصد حج بيت الله الحرام سنة 1280، فسار مع القافلة، وفي بعض الطريق أظلم الجو وتساقط الثلج، وكان الوقت ليلاً، فلم يسعه اللحوق برفاقه، فقرّر الوقوف في مكانه حتى يطلع الفجر، وإذا بستان يبدو أمامه، فيه فلاح بيده مسحاة.

قال: [فدنا مني وسألني: من أنت؟ فأجبت: إني قد تخلفت عن الركب ولا أهتدي، فخاطبني بالفارسية قائلاً: عليك بالنافلة،...]

إلى قال: [فقال لي: أنا الآن ألحقك بالقافلة، فركب حمارًا وحمل المسحاة على عاتقه وقال لي: أردف لي على ظهر الحمار، فردفت له، ثم سحبت عنان فرسي فقاومني ولم يجرِ معي، فقال صاحبي: ناولني العنان. فناولته إيّاه، فأخذ العنان بيمينه ووضع المسحاة على عاتقه الأيسر وأخذ في المسير فطاوعه الفرس أيسر المطاوعة، ثمّ وضع يده على ركبتي وقال: لماذا لا تؤدّون صلاة النّافلة، النّافلة، النّافلة، قالها ثلاث مرّات، ثمّ قال أيضًا: لماذا تتركون زيارة عاشوراء زيارة عاشوراء زيارة عاشوراء كرّرها ثلاث مرّات، ثمّ قال: لماذا لا تزورون بالزّيارة الجامعة الكبيرة، الجامعة، الجامعة، الجامعة...].

إلى أن قال: [فنظرت إلى الوراء فلم أجد أحدًا ولم أعثر على أثر يدل عليه، فالتحقت بأصدقائي]([17]).

مكاشفة للمجلسي الأول:

ومما يستأنس به أيضًا ما ذكره المولى محمد تقي المجلسي (قده) في روضة المتقين:

[ولما وفقني الله تعالى لزيارة أمير المؤمنين (عليه السلام) وشرعت في حوالي الروضة المقدسة في المجاهدات وفتح الله تعالى علي ببركة مولانا (عليه السلام) أبواب المكاشفات التي لا يحتملها العقول الضعيفة رأيت في ذلك العالم (و إن شئت قلت بين النوم واليقظة) عندما كنت في رواق عمران جالسا إني بسر من رأى (سامراء)، ورأيت مشهدهما في نهاية الارتفاع والزينة، ورأيت على قبرهما لباسا أخضر من لباس الجنة؛ لأنه لم أر مثله في الدنيا، ورأيت مولانا ومولى الأنام صاحب العصر والزمان (عليه السلام) جالسا، ظهره على القبر ووجهه إلى الباب فلما رأيته شرعت في هذه الزيارة بالصوت المرتفع كالمداحين فلما أتممتها، قال (عليه السلام): نعمت الزيارة.

قلت: مولاي روحي فداك زيارة جدك؟ (و أشرت نحو القبر). فقال: نعم، ادخل.

فلما دخلت وقفت قريبًا من الباب. فقال (عليه السلام): تقدّم.

فقلت: مولاي أخاف أن أصير كافرا بترك الأدب. فقال (عليه السلام): لا بأس إذا كان بإذننا.

فتقدمت قليلا وكنت خائفا مرتعشا، فقال: تقدم.. تقدم، حتى صرت قريبًا منه (عليه السلام). قال: اجلس. قلت: أخاف مولاي. قال (عليه السلام): لا تخف.

فلما جلست جلسة العبيد بين يدي المولى الجليل، قال (عليه السلام): استرح واجلس مربعا، فإنك تعبت، جئت ماشيا حافيا.

والحاصل أنه وقع منه (عليه السلام) بالنسبة إلى عبده ألطاف عظيمة ومكالمات لطيفة لا يمكن عدها ونسيت أكثرها.

ثمَّ انتبهت من تلك الرؤيا، وحصل في اليوم أسباب الزيارة بعد كون الطريق مسدودة في مدة طويلة، وبعد ما حصل، الموانع العظيمة ارتفعت بفضل الله وتيسرت الزيارة بالمشي والحفا، كما قاله الصاحب (عليه السلام).

وكنت ليلة في الروضة المقدسة وزرت مكررا بهذه الزيارة، وظهر في الطريق وفي الروضة كرامات عجيبة بل معجزات غريبة يطول ذكرها، فالحاصل أنه لا شك لي أن هذه الزيارة من أبي الحسن الهادي (عليه السلام) - بتقرير الصاحب (عليه السلام) - وأنها أكمل الزيارات وأحسنها بل بعد تلك الرؤيا أكثر الأوقات أزور الأئمة (عليهم السلام) بهذه الزيارة وفي العتبات العاليات ما زرتهم إلا بهذه الزيارة].([18])

الزيارة الجامعة الكاملة:

ثم أن هذه الزيارة العظيمة لها صورة أخرى أطول، بطريق آخر غير الطريق الذي رواه الصدوق و الشيخ رحمهما الله. وقد روى تلك الصورة المطولة الكفعمي (رحمه الله) في البلد الأمين([19]) والميرزا النوري (رحمه الله) في المستدرك في أبواب الزيارات([20]). و قد روى المجلسي (رحمه الله) الزيادات في زيارات جامعة أخرى.

بل قد ألّف الميرزا النوري (قده) كتابًا خاصًا بالزيارة الجامعة الكاملة، و قد طبع في تبريز سنة 1315 هـ ([21]).

و أورد الشيخ عباس القمي (رحمه الله) متن الزيارة الكاملة في ما تممه من كتاب (تحية الزائر) للميرزا النوري([22]).

انتهى المقال

---

[17]- النجم الثاقب ج2 ص273، مفاتيح الجنان ص 626-628.

[18]- روضة المتقين ج5 ص452.

[19]- البلد الأمين ص 418.

[20]- المستدرك - باب نوادر ما يتعلق بأبواب المزار ج 10 ص 416.

[21]- الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج 12 ص 79.

[22]- المصدر السابق: ج 3 ص 488.

الهوامش

* هذه المقالة هي من ضمن مجموعة من المحاضرات ألقاها سماحة آية الله المحقق الشيخ محمد سند في قم المقدسة.

إطلالة على كتاب الكافي

الشيخ أمين ترمس

إطلالة على كتاب الكافي الشريف

الشيخ أمين ترمس *

إن المشهور بين العلماء أن أدلة الأحكام هي أربعة: الكتاب، والسنة، والعقل، والإجماع، إلا أن المتأمل بعين الإنصاف يعلم أن العمدة في إثبات الحلال والحرام، والفرائض والسنن، هو الحديث الشريف.

ومن هنا كان حرص النبي (صلى الله عليه وآله) على تدوين الحديث، وحثّ أصحابه على جمعه والاعتناء به، فقد روي عنه (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (اكتبوا هذا العلم) ([1])،و(قيدوا العلم بالكتاب) ([2])، ونحو ذلك كثير، وبُعيد انتقال النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) إلى الرفيق الأعلى، مُنع تدوين الحديث بشكل رسمي من قِبل مَن وضعوا أنفسهم في مكانٍ ليس لهم، ولأغراض معروفة، ولكنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ومَن كان حوله لم يصغوا لهذا المنع، بل في قبال ذلك جاهر أمير المؤمنين (عليه السلام) مؤكدًا على ما أمر به رسول الله (صلى الله عليه وآله)، واستمر المخلصون بالتدوين والكتابة غير آبهين بقرارات السلطة، فخرج نتيجة ذلك إلى الملأ عدّة مصنفات، وانتشرت بين الناس، ومرّت هذه المسيرة بمراحل صعبة، إلى أن اتّسعت وتطورت، فكُتب في زمن الإمامين الباقر والصادق (عليهما السلام) فقط آلاف الكتب والرسائل، وفي شتى حقول العلم والمعرفة، وكان للعلوم الشرعية الحظ الأوفر من بينها، فبرزت جملة من تلك الكتب عُرفت فيما بعد بالأصول الأربعمائة، وهي أربعمائة مصنَّف لأربعمائة مصنِّف، وقد صرّح الحر العاملي في خاتمة كتابه الوسائل: أنه أحصى تلك الكتب التي دوّنت في عصر الأئمة (عليهم السلام) فزادت على ستة آلاف وستمائة كتاب([3]).

فمن هنا نقف على أهمية الدور الذي قام به أصحاب الكتب الأربعة -"الكافي" للشيخ الكليني، و"مَن لا يحضره الفقيه" للشيخ الصدوق، و"التهذيب" و"الاستبصار" للشيخ الطوسي - من جمع وحفظ لأهمّ تلك الروايات التي وردت في المصنّفات السابقة عليهم، ولأجل ذلك كانت لهم تلك المكانة الرفيعة، والمنزلة السامية عند علماء الإمامية، منذ ما يزيد على ألف سنة خلت، وحتى عصرنا الحاضر، وما ذلك إلا لما امتازت به من ميزات وخصائص لا توجد في غيرها مما كُتب، وكان صاحب الدور الأبرز من هؤلاء العظماء، هو الشيخ محمد بن يعقوب الكليني، ولكتابه الكافي، فقد كان - بحقٍّ - النجم الساطع، والنور المتألّق من بينها، وذلك لما امتاز عن المميَّز، وارتفع عن الرفيع، فهو الأول تأليفًا من بينها، والأقدم تاريخًا، والأشمل موضوعًا، والأكثر رواية، والأصح سندًا، والأقرب إلى عصر المعصومين زمانًا.

انطلاقًا مما تقدم سأخصّص البحث في هذه الدراسة حول كتاب الكافي محاولاً الإضاءة على بعض جوانبه، رغم العديد مما كُتب فيه، إلا أنني سأحاول أن أذكر شيئًا جديدًا قلما ذكره أحد، أو ذُكر إلا أنه كان بشكل مختصر وغير وافٍ، أو كان فيه أوهام عديدة.

أقول وبالله التوفيق:

إن كتاب الكافي لمؤلّفه ثقة الإسلام الشيخ محمد بن يعقوب الكليني (ت 329هـ)، استأثر بالمرتبة الأولى من بين الكتب، وأَسَر لبّ العلماء والمحققين، والفضلاء والمجتهدين، وما كلّ ذلك إلا لاشتماله على خصائص لا تُوجد في غيره، وتفرّد بأمور لم يسبقه إليها أحدٌ من قبله، فقد أمضى (رحمه الله) في تأليفه مدة عشرين سنة، عاكفًا على أصول أصحاب الأئمة وكتبهم يجمع بينها، وينتخب منها حتى اجتمع لديه منها الشيء الكثير، فهذّبها في أحسن تهذيب، ورتّبها في أجمل ترتيب، وبوّبها على حسب حاجة المكلف إليها، ولأجل ذلك وصفه كبار العلماء - قديمًا وحديثًا - بأوصاف لم يُوصف بها غيره.

ثناء العلماء على كتاب الكافي

قال شيخ مشايخ الطائفة محمد بن محمد بن النعمان المفيد (ت 413هـ) أنه: "من أجلّ كتب الشيعة وأكثرها فائدة"([4]).

وقال الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي (ت786هـ) في إجازته لعلي بن الحسن المعروف بابن الخازن الحائري: "... كتاب الكافي في الحديث الذي لم يُعمل للإمامية مثله"([5]).

وقال الشيخ إبراهيم القطيفي في إجازته للشيخ شمس الدين الاسترابادي في سنة 920هـ: "... وكتاب محمد بن يعقوب الكليني، فإنه كافٍ شافٍ وافٍ"([6]).

وقال الشيخ المحقق علي بن الحسين الكركي (ت 940هـ) في إجازته للقاضي صفي الدين عيسى: "... ومنها جميع مصنفات ومرويات الشيخ الإمام السعيد الحافظ المحدّث الثقة جامع أحاديث أهل البيت (عليهم السلام) أبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني، صاحب الكتاب الكبير في الحديث المسمى بالكافي، الذي لم يُعمل مثله... وقد جمع هذا الكتاب من الأحاديث الشرعية والأسرار الربانية ما لا يوجد في غيره..[7]"

وقال الفيض الكاشاني (ت1091هـ) في وصفه للكتب الأربعة: " وأما الكافي، فهو... أشرفها وأوثقها وأتمّها وأجمعها لاشتماله على الأصول من بينها، وخلّوه من الفضول وشينها"([8]).

وقال العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي (ت1111هـ) في مقدمة شرحه على الكافي: "وابتدأت بكتاب الكافي للشيخ الصدوق ثقة الإسلام مقبول طوائف الأنام، ممدوح الخاص والعام، محمد بن يعقوب الكليني، حشره الله مع الأئمة الكرام، لأنه كان أضبط الأصول وأجمعها، وأحسن مؤلفات الفرقة الناجية وأعظمها"([9]).

وأكتفي بهذه الكلمات، لأن القارئ الكريم يستطيع أن يكوّن من خلالها صورة واضحة جليّة عن أهمية كتاب الكافي، ولو أردت أن استقصي ما قيل فيه لطال بنا الكلام، وخرجنا عن المقام.

ومن الواضح أن ثناء العلماء الأعلام ومدائحهم لا ترجع إلى حجم الكتاب وكثرة أحاديثه، لأنه كُتب قبله وبعده بما زاد عليه حجمًا وعددًا، وإنما نال هذا الإطراء لاشتماله على ميزات لم يشتمل عليها غيره.

ترتيب الكافي

قسّم الشيخ الكليني كتابه إلى ثلاثة أقسام: - الأصول والفروع والروضة - وقد طبع مؤخرًا في ثمانية أجزاء:

الأول والثاني اشتملا على كامل الأصول.

والثالث إلى نهاية السابع، على كامل الفروع الفقهية ابتداءً من الطهارة، وانتهاءً بكتاب الأيمان والنذور والكفارات.

والجزء الثامن والأخير خُصّص للروضة، من خلال اسمه يُعرف محتواه ومضمونه، فكان مجموع الكتب فيه خمسة وثلاثين كتابًا حسب الطبعة المشار إليها، وزادت الأبواب فيها على الألفين والمئتين، وعدد الأحاديث على الخمسة عشر ألفًا وخمسمئة، هذا ووقع اختلاف بسيط بين ما ذكره الشيخ الطوسي والشيخ النجاشي في عدد كتب الكافي، فقد أسقط كلٌّ منهما بعض الكتب، ووحّدا بعضًا آخر منها، فوقع الاختلاف بينهما، إلا أنهما اتفقا على أن كتاب الروضة من جملته وخاتمته.

شبهة حول نسبة الروضة للكليني

نقل الميرزا عبد الله أفندي الأصفهاني (من أعلام القرن الثاني عشر هجري)، عن الشيخ خليل بن الغازي القزويني الأخباري (ت1089هـ) أنه يقول: "إن الروضة ليست من تأليف الكليني رحمه الله، بل هو من تأليف ابن إدريس، وإنْ ساعده في الأخير بعض الأصحاب، وربما ينسب هذا القول الأخير إلى الشهيد الثاني أيضًا، ولكن لم يثبت" ([10]).

وقبل هذا الشيخ لم أعثر على أيّ كلام فيه تشكيك، فضلاً عن الاعتقاد بأن الروضة ليست من تأليف الشيخ الكليني، ولا أدري ما الذي حمل هذا الشيخ، وربما غيره، على هذا الكلام، ولا أرى له أيّ مبرّر على الإطلاق، علمًا أن الشيخ القزويني شرح كتاب الكافي مرتين، الأولى باللغة العربية، وهو شرح كامل وسماه(الصافي في شرح الكافي)، وأخرى باللغة الفارسية وهو شرح غير كامل، وسماه (الشافي في شرح الكافي) ([11]).

وعلى كل حال، فهذا الزعم باطل جزمًا من عدة وجوه:

الأول: إن طريقة الشيخ الكليني في جميع كتاب الكافي متحدة مع ما في الروضة من حيث الشيوخ والأسانيد والطريقة والأسلوب، فإن من روى عنهم في الروضة هم أنفسهم الذين روى عنهم في سائر الأجزاء من الكافي، وما فيها عن غير مشايخه المباشرين، فهو معلّق - حسب مصطلح علم الدراية - على سابقه كما هو معلوم من طريقته في جميع أجزاء الكافي.

الثاني: وجود عدد كبير من الروايات رواها الشيخ الكليني في الروضة عن عدة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، أو عن أحمد بن محمد بن عيسى، أو عن أحمد بن محمد بن خالد، وهذه الطريقة للعدد الثلاث ليست موجودة إلا عند الشيخ الكليني، وإن وجدت عند غيره، فهو عنه ينقل وعليه يعتمد.

الثالث: ذكر كل من الشيخ النجاشي في كتابه([12])، والشيخ الطوسي في فهرسه([13])، وبشكل صريح لا لبس فيه أن كتاب الروضة هو خاتمة كتاب الكافي، ومن أعرف بكتب الأصحاب منهما!؟ خصوصًا لمثل الكليني القريب منهما، والمشهور عندهما.

الرابع: إني لاحظت - وبشكل عابر - فوجدت عددًا من الأحاديث هي نفسها كان الشيخ الكليني قد رواها في الأصول والفروع من دون اختلاف سندًا ومتنًا.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، لاحظ الروضة ص151، حديث 135، فإنه قد تقدّم في الجزء الثاني ص174 باب 75 حديث 16 بعينه.

وكذلك ص306 رقم476، فإنه تقدم أيضًا في الجزء الثاني ص296، باب 116 حديث 14 بعينه.

الخامس: إذا لم تكن الروضة للكليني، فلمن هي إذًا؟! ولم يدّع أحد من الأصحاب أنها له، وما قيل بأنها لابن إدريس الحلي - الذي هو بعد الكليني بأكثر من قرن ونصف قرن من الزمن - لا دليل يؤيده، ولا اعتبار يساعده، هذا مع بُعد الطبقة واختلاف الطريقة بين مشايخ أسانيد الروضة وابن إدريس.

السادس: إن نقل الأصحاب واعتمادهم قديمًا وحديثًا على كتاب الكافي بأقسامه الثلاثة، الأصول والفروع والروضة، من دون أي تردّد، أو أدنى تأمّل فيها إنما يكشف عن تعاملهم مع الكافي بما فيه الروضة على أنها منه، ولم نر أو نسمع من احدٍ تشكيكًا سوى من تقدّم ذكره.

وأخيرًا أشير إلى أن بعضهم ذكر مما استدل به على أن الروضة هي من الكافي بما جاء في نهاية الجزء السابع من الطبعة الحديثة المتداولة: ((... ويتلوه كتاب الروضة من الكافي إنشاء الله)).

والصحيح أن هذه العبارة أضيفت مؤخّرًا على الكتاب لدواعٍ فنيّة فقط، وإلا فهي غير موجودة في الطبعات القديمة الحجرية، ولا في المخطوطات للكتاب.

يتبع =

---

[1] - كنز العمال، للمتقي الهندي: ج10، ص262، ح29389.

[2] - تقييد العلم، للخطيب البغدادي: ص69.

[3] - وسائل الشيعة: 30/165، نهاية الفائدة الرابعة.

[4] - تصحيح الاعتقاد،: ص70.

[5] - لاحظ إجازات بحار الأنوار: 107/190.

[6] - المصدر السابق: 108/114.

[7] - المصدر السابق: 108/75.

[8] - الوافي: 1/5.

[9] - مرآة العقول: 1/34.

[10] - رياض العلماء وحياض الفضلاء: 2/262.

[11] - لاحظ أمل الآمل: 2/112، رقم 314؛ ورياض العلماء: 2/265.

[12] - رجال النجاشي: ص377، رقم 1026.

[13] - الفهرست، الطوسي: ص326، رقم 709.

.

تتمة مقال - إطلالة على كتاب الكافي

دعوى صحة جميع ما في الكافي

ادعى جماعة أن جميع ما في الكافي صحيح معتبرٌ، ولا حاجة إلى البحث عن سند رواياته، وهذا الكلام لم يصدر عن جملة من الأخباريين فقط -الذين عُرفوا بنظرتهم الخاصة تجاه الكتب الأربعة بل جميع الكتب المشهورة- وإنما نُقل ذلك عن بعض كبار الأصوليين، فقد نقل السيد الخوئي " قدس سره" (ت 1413هـ) عن أستاذه الشيخ محمد حسين النائيني "قدس سره"(ت 1355هـ)،أنه كان يقول في مجلس بحثه: ((إن المناقشة في إسناد روايات الكافي حِرفة العاجز)) ([1]).

وقد استدل أصحاب هذه الدعوى بعدّة وجوه، أهمها:

(أ) ما قاله الشيخ الكليني نفسه في خطبة الكافي: ((وأما بعد فقد فهمت يا أخي ما شكوت... وذكرت أن أمورًا قد أشكلت عليك، لا تعرف حقائقها لاختلاف الرواية فيها.. وقلت إنك تحبّ أن يكون عندك كتاب كافٍ يجمع فيه من جميع فنون علم الدين ما يكتفي به المتعلّم، ويرجع إليه المسترشد، ويأخذ منه من يريد علم الدين والعمل به بالآثار الصحيحة عن الصادقين عليهم السلام، والسنن القائمة التي عليها العمل وبها يؤدّى فرض الله عز وجل، وسنّة نبيه صلى الله عليه وآله... وقد يسّر الله - وله الحمد - تأليف ما سألت، وأرجو أن يكون بحيث توخّيت..)) ([2]).

ووجه الاستدلال بهذه الفقرة أن السائل طلب من الشيخ الكليني أن يكتب كتابًا يكون جامعًا لفنون علم الدين بالآثار الصحيحة عن الصادقين (عليهم السلام)، والشيخ الكليني قد استجاب لطلبه ومراده.

والذي يظهر من كلام الشيخ الكليني هذا، أنه كتبه بعد إتمام كتابه ((وقد يسّر الله تأليف ما سألت))، وهذا يعني أن جميع ما أودعه في كتابه هو من الآثار الصحيحة عن الصادقين (عليهم السلام).

أقول: إن دعوى أن الكليني قال هذا الكلام بعد تأليفه الكتاب ليست بعيدة، بل في العبارة المتقدّمة وغيرها أكثر من دليل عليها.

وأما أن الكليني شهد بصحة جميع ما أودعه في كتابه وأنها عن الصادقين (عليهم السلام) فهذا لا يمكن الموافقة عليه، وذلك لأمور:

أولاً: ((إن السائل إنما سأل محمد بن يعقوب تأليف كتاب مشتمل على الآثار الصحيحة عن الصادقين (عليهم السلام) ولم يشترط عليه أن لا يذكر فيه غير الرواية الصحيحة، أو ما صحّ عن غير الصادقين (عليهم السلام)، ومحمد بن يعقوب قد أعطاه ما سأله، فكتب كتابً مشتملاً على الآثار الصحيحة عن الصادقين (عليهم السلام) في

جميع فنون علم الدين، وإن اشتمل كتابه على غير الآثار الصحيحة منهم (عليهم السلام)، أو الصحيحة عن غيرهم أيضًا استطرادًا وتتميمًا للفائدة، إذ لعل الناظر يستنبط صحة رواية لم تصح عند المؤلف، أو لم تثبت صحتها. ويشهد على ما ذكرناه: أن محمد بن يعقوب روى كثيرًا في الكافي عن غير المعصومين)) ([3])كما هو واضح لمن راجع الكتاب، خصوصًا الجزء الأول، ولولا خوف الإطالة، لذكرت تلك الموارد كافة.

ثانيًا: على فرض اعتقاد الشيخ الكليني بصحة جميع روايات كتابه، فإنه لا ينفع الجميع، وذلك للاختلاف في معنى الصحيح بين المتقدمين والمتأخرين، فإن الصحيح عند القدماء هو الخبر المحفوف بالقرائن التي تفيد الوثوق بصدوره عن المعصوم (عليه السلام)، بينما عند مشهور المتأخرين هو الخبر الذي رواه العدل الإمامي عن مثله إلى المعصوم (عليه السلام).

وهذه القرائن التي قد يستفيد منها البعض الوثوق، لو اطّلع عليها غيره قد لا يستفيد منها ذلك، لأن مثل هذه الأمور مبنية على الاجتهاد والحدس ليصل إلى ما يعتقده قرينة على صدقه، ومن الطبيعي جدًا أن قرينة أو قرائن استفاد منها شخص العلم واليقين عندما اطلع عليها لم تفده الظن فضلاً عن العلم.

ثالثًا: إن كتاب الكافي قد اشتمل على عدد ملحوظ من الروايات المرسلة والشاذة ومن في سندها من صرّح علماء الرجال والجرح والتعديل بأنه من الكذابين الوضاعين، ومن الصعوبة بمكان أن يتم التوفيق بين تلك الدعوى وبين هذا.

رابعًا: إن قدماء الأصحاب الذين عاصروا الكليني وما بعده، وممن مدح الكافي ومؤلِّفه بما لا مزيد عليه لم يتعاملوا معه على أساس صحة جميع ما فيه، بل وجدناهم يناقشون أسانيده ورواياته كغيره من الكتب، فيقبلون ما يَرَونه صحيحًا ويردّون ما لا يتوافق مع اعتقادهم، ولم يعمل أحد منهم بروايات الكافي كيفما كان، أو يجعل وجود رواية في الكافي مقدمة على غيرها عند التعارض مع رواية أخرى في غيره.

(ب) كون المؤلف الشيخ الكليني في عصر الغيبة الصغرى، وأول من أشار إلى ذلك - حسب علمي - هو السيد علي بن طاووس (ت664هـ) في كتابه كشف المحجة، عند ذكره لوصية الإمام أمير المؤمنين إلى ولده الإمام الحسن (عليهما السلام)، فقد قال: ((... وهذا الشيخ محمد بن يعقوب كان حيًا في زمن وكلاء المهدي عليه السلام.. عثمان بن سعيد العمري، وولده أبي جعفر محمد، وأبي القاسم الحسين روح، وعلي بن محمد السمري... فتصانيف هذا الشيخ محمد بن يعقوب ورواياته في زمن الوكلاء المذكورين في وقت تجد طريقًا إلى تحقيق منقولاته، وتصديق مصنفاته)) ([4]).

وقال الشيخ المجلسي في شرحه على الكتاب: ((... وأما جزم بعض المجازفين بكون جميع الكافي معروضًا على القائم عليه السلام لكونه في بلدة السفراء، فلا يخفى ما فيه على ذي لبّ، نعم عدم إنكار القائم وآبائه (صلوات الله عليه وعليهم) عليه وعلى أمثاله في تأليفاتهم ورواياتهم مما يورث الظن المتاخم للعلم بكونهم عليهم السلام

راضين بفعلهم، ومجوزين للعمل بأخبارهم)) ([5]).

ونقل الميرزا الأفندي عن الشيخ خليل بن الغازي القزويني أنه كان يقول: ((إن كتاب الكافي بأجمعه قد شاهده الصاحب عليه السلام واستحسنه، وأن كل ما وقع فيه بلفظ "روي" فهو مروي عن الصاحب عليه السلام بلا واسطة، وأن جميع أخباره حق واجب العمل بها، حتى أنه ليس فيه خبر للتقية ونحوها...)) ([6]).

وقد نقل بعضهم شيئًا من هذه العبارات وأيدها.

وهناك كلمات أخرى في هذا السياق مفادها: أن الأصحاب كانوا يعرضون الكتب على الأئمة (عليهم السلام) وعلى نوابهم لكي يتثبتوا من صحتها مع أنها ليست بأهمية الكافي، فهل من المتوقع أن كتابًا بهذه الأهمية يمضي مؤلفه عشرين سنة من عمره في تأليفه([7])ثم لا يعرض على الإمام، ولو بواسطة أحد النواب؟ بل وصل الأمر ببعضهم فنسب ذلك إليه صراحة، وأنه بالفعل اطلع (عليه السلام) على كتاب الكافي، فقال، أو كتب على ظهر النسخة التي عرضت عليه: ((هذا كافٍ لشيعتنا)) ([8]).

والبعض قاس طلب النائب الثالث الحسين بن روح لكتاب محمد بن علي الشلمغاني المعروف بكتاب "التكليف" لكي ينظر فيه مع أنه ليس بمستوى أهمية الكافي، فكيف لا يطلب الكافي لنفس الغرض؟!([9]).

وهذه الدعاوى لو قام عليها دليل أو برهان لكنّا في غاية السرور والسعادة، وفي راحة من كثير العناء والبحث، ولكن أنى إلى ذلك من سبيل؟!

ويمكن أن يجاب عن ذلك كله بعدة أمور:

أولاً: إثبات أن الشيخ الكليني كان مقيمًا ببغداد أثناء تأليفه الكافي، هو أوّل الكلام، ولا طريق لإثبات ذلك ببرهان، بل ظاهر عبارات الأصحاب خلاف ذلك، قال النجاشي في ترجمة الكليني: ((... شيخ أصحابنا في وقتنا بالريّ ووجههم)) ([10]).

والنجاشي هو ابن مدرسة بغداد وأعلم بما فيها، فلو كان فترة تأليفه الكافي ببغداد فلا وجه لكلامه هذا، لأن تلك الفترة من حياته والتي كتب فيها الكافي وامتدت إلى عشرين سنة كما تقدم آنفًا، هي ذروة تكالمه العلمي([11]).

نعم، هذا لا يعني أنه لم يدخل بغداد البتّة، أو لم يزرها في رحلاته العلمية وسفراته في البلدان، فمن الطبيعي أن يمرّ على بغداد ويلتقي علماءها، ويأخذ عنهم الرواية وغير ذلك، ولكن أين هذا من المدعى؟!

وكل ما هو ثابت جزمًا أنه كان في بغداد قبل وفاته بسنتين أي 327 هجرية، وفي تلك السنة سمع منه الأصحاب([12])، وتوفي ودفن ببغداد.

وإذا تم هذا - وهو تام - فيكون قد فرغ من تأليفه الكافي في الريّ، ومن المستبعد أن لا يكون قد حدّث به هناك واستنسخه الأصحاب، خصوصًا بعد ملاحظة أن عددًا من علماء الري وأهل تلك البلاد قد رووا الكافي عن مؤلِّفه، وهذا واضح من طريق الشيخ الصدوق إليه في مشيخة "من لا يحضره الفقيه"([13]). وبعد ذلك أي فائدة مرجوّة من عرض الكتاب على الإمام بعد نشره في الري وغيرها؟!

ثانيًا: لو كان قد خالط السفراء أو بعضهم كما زعموا لكان أكثَرَ الرواية عنهم، والاعتماد عليهم، خصوصًا في الأبواب المتعلقة بالإمام (عليه السلام) والتي تجاوزت رواياتها الخمسين، مع أنه لم يخرج رواية واحدة مباشرة عن أحدهم، وما ذكره عنهم قليل جدًا لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، وجميعها بواسطة أو أكثر عن بعضهم([14]).

ثالثًا: لو كان الكتاب قد عُرض على الإمام (عليه السلام) أو أحد نوابه بواسطة المؤلف أو أحد تلامذته، لشاع هذا الأمر في عصره ومصره على أقل تقدير، ولأثبته الأصحاب كما أثبتوا غيره من الكتب التي عرضت على بعض الأئمة، ولذكر ذلك من ترجم للشيخ الكليني، مع ذكرهم لبعض الأمور التي لا ترقى إلى مستوى هذا الموضوع، وعلى الأقل لذكرها الكليني نفسه في خطبة كتابه، أو لأشار إليها وقد تقدم أن خطبة الكتاب كتبها بعد تأليفه له.

رابعًا: إن مقولة (هذا كاف لشيعتنا) رفضها محققو العلماء، حتى متشددو الأخباريين لم يقبلوا بها مع تصريحهم بقطعية جميع ما في الكافي([15])، فكيف بغيرهم؟!

خامسًا: إن قياس عرض كتاب الشلمغاني على كتاب الكليني في غير محله، وقياس مع الفارق، لأن الداعي إلى الأول هو انحرافه بعد استقامته وخروج اللعن عليه والبراءة منه من الناحية المقدسة، وكان كتابه مشهورًا في الطائفة فكانت الحكمة والمسؤولية تقضي على الحسين بن روح أن يقوم بطلب الكتاب والنظر فيه، وأين هذا من كتاب الكافي الذي كان مؤلِّفه فوق الشبهات.

سادسًا: يمكن أن يستفاد من كلام الشيخ الكليني نفسه في خطبة الكتاب أنه رحمه الله لم يكن قائلاً بصحة جميع روايات الكافي، فقد قال: ((فاعلم يا أخي -أرشدك الله - أنه لا يسع أحدًا تمييز شيء مما اختلف الرواية فيه عن العلماء عليهم السلام برأيه، إلا على ما أطلقه العالم بقوله عليه السلام: "اعرضوها على كتاب الله، فما وافق كتاب الله عز وجل فخذوه، وما خالف كتاب الله فردوه"، وقوله عليه السلام: " دعوا ما وافق القوم، فإن الرشد في خلافهم"، وقوله عليه السلام: "خذوا بالمجمع عليه، فإن المجمع عليه لا ريب فيه"، ونحن لا نعرف من جميع ذلك إلا أقله، ولا نجد شيئًا أحوط ولا أوسع من رد علم ذلك كله إلى العالم عليه السلام، وقبول ما وسّع من الأمر فيه بقوله عليه السلام: "بأيما أخذتم من باب التسليم وسعكم"))([16]).

وأخيرًا فإن المنع من دعوى صحة جميع ما في الكافي لا ينقص من قيمة الكافي شيئًا، ولا يضع من رفعته قدرًا، لأنه إن قيل عنه هذا فلا يعني أن غيره سالم من الطعن، أو بريء من الانتقاد، أو فوق الشبهات، وما هو كذلك ليس إلا كتاب ربّ الأرباب عز وجل أو من عصمه الله عن الزلل والخطأ.

ثم إن هناك أبحاثًا أخرى مهمة تتعلق بهذا الكتاب، وله ميزات فريدة تستحق البيان، وحوله شبهات حاكها بعض من لا إنصاف لديه من العامة ينبغي التصدي لردّها، وقد فندّت بعضها في بحث مستقل نشر في العدد الثاني من السنة الأولى من هذه المجلة الغرّاء.

انتهى المقال

---

[1] - معجم رجال الحديث: 1/81.

[2] - الكافي: 1/5-8.

[3] - معجم رجال الحديث: 1/82.

[4] - كشف المحجة لثمرة المهجة: ص220.

[5] - مرآة العقول: 1/22.

[6] - رياض العلماء وحياض الفضلاء: 2/261

[7] - رجال النجاشي: ص377، رقم 1026.

[8] - لاحظ ترتيب أسانيد الكافي للسيد البروجردي: ص110.

[9] - لاحظ خاتمة مستدرك الوسائل: 3/473.

[10] - رجال النجاشي: ص377، رقم 1026.

[11] - لاحظ بحوث حول روايات الكافي: ص13-14؛ وترتيب أسانيد الكافي: ص110.

[12] - راجع مشيخة الشيخ الطوسي عند ذكره لطريق الشيخ الكليني، التهذيب: 10/29؛ والاستبصار: 4/310.

[13] - من لا يحضره الفقيه: 4/534.

[14] - لاحظ الكافي: ج1 كتب الحجة باب: 77-78-126.

[15] - لاحظ خاتمة مستدرك الوسائل: 3/470.

[16] - الكافي: 1/8-9.

الهوامش

* مبلّغ ديني ومدرّس في الحوزة العلمية.

الرسالة النبوية الخاتمة

الشيخ علي ياغي

الشيخ علي ياغي *

مدخل

بعث الله عزّ وجل رسول رحمته وأمين كلمته محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله)، بين يدي الساعة ليختم بنبوته ورسالته التامة حجّته على خلقه، فهي خاتمة لما سبق، وفاتحة لما يُستقبل من أيام قبل القيامة، وهي مهيمنة على الزمان كلّه.

جاءت هذه الرسالة وشعارها الدعوة إلى العلم وإقامة العدل، وتكميل الأنفس بخير المكارم وأجمع الفضائل وأتم البرهان وأعلى الحكمة، وتعقّبت هذه الرسالة التجربة الإنسانية التي تراكمت جهود أبنائها في مسيرة مضنية شاقة، حافلة بألوان حمراء وسوداء، وقليل نادر من لون الراحة والهناء.

جاءت هذه الرسالة تحمل النور والهداية إلى كلّ حقّ وحقيقة وصراط مستقيم، تبثّ علمها وروح حكمتها وعطر بيانها بمنطق رقيق عطوف شفيق، تدعو إلى سبيل رب العالمين بالحكمة والموعظة الحسنة، وتحرص على سوق الأنفس إلى صراط العزيز الحميد، برأفة الآباء وحنو الأمهات، تفتح لهم مغاليق أبواب المعرفة، وتطرق عليهم باب سباتهم لتوقظهم من مهلكات الغفلة، تُرادف في بيّناتها وتتابع في آياتها، وتخاطب كلّ ذي عقل بعقله، وكلّ ذي فن بفنّه، وكلّ ذي معرفة وعلم في معرفته وعلمه.

وإننا إذ نقف معها اليوم وقفة تأمل في حدود مقال، أحبّ أن أبرز بعض خصائصها وأُشير إلى بعض معالمها، محاولاً بذلك تكميل وعيي عسى أن أكون في عداد طالبي الرشد، وعسى أن ألفت البعيد عنها إلى بعض حقائقها، ومنه سبحانه استمد العون.

الحقيقة الأولى:

جامعية الرسالة

إننا نعتقد جامعية الرسالة المحمدية الطاهرة لكل نواحي الحياة الإنسانية ذات الصلة بالهداية إلى الحق والحقيقة، إن في مجال الفكر والاعتقاد أو في ثمراتهما من صناعة الحياة الطيبة في الدنيا والسعادة في الآخرة.

فالملاحظ بوضوح تام، أنها رسالة أضاءت أنوار شموسها جميع الآفاق الداخلة في الاهتمام الإنساني، على مدى مساحة هذا الاهتمام في الزمان والمكان وما يعتريهما من أحوال.

ويبتني شمولها وجامعتيها فيما يبتني عليه:

أولاً: أنها تعقّبت دعوة الأنبياء السابقين عليهم السلام، وبالخصوص منهم النبيّين المكرَّمين موسى وعيسى على نبينا وآله وعليهما السلام، وأخصّهما بالذكر لجهة أن امتداد رسالتيهما عاصر ولم يزل عبر الموسويين والمسيحيين (الأتباع) زمان الرسالة المحمدية، وقد كان من أتباع هاتين الرسالتين الشريفتين أن عبَروا عن حدود نور الرسالتين وتجاوزوا منطقيهما، وبعدوا بعدا مفرطًا عن دعوة الرسالتين، ما ألحق هؤلاء الأتباع في عداد أهل الجاهلية، بل لعل التأمل يفيد بأن عقدة هؤلاء المدّعين للتابعية كانت أشدّ على الرسالة المحمدية -ولم تزل- من عقدة الجاهليّين أهل الشرك أنفسهم.

وعليه، كان لا بدّ من أن تعالج الرسالة المحمدية عقدة هذا المجتمع الكتابي بثورة المفاهيم والأفكار والمنطق والاحتجاج عليه، ما جعل الرسالة المحمدية مضطرة لتوسيع رقعة بيانها حتى تشمل بعين عنايتها جميع ما شذّ عنه وشذّ به أهل الكتاب، لذلك نجد في آيات الكتاب العزيز وفي سيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وسيرة أئمتنا عليهم السلام مساحة عريضة مفردة لقضايا أهل الكتاب، ومن شواهد ذلك:

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}([1]).

وقوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}([2]).

وقوله تعالى{وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}([3]).

وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}([4]).

ثانيًا: مما يبتني عليه شمول الرسالة وجامعتيها أنها خاتمة الرسالات الإلهية، فلا رسالة بعد الإسلام ولا نبي بعد محمد (صلى الله عليه وآله).

وقد مضى على هذه الرسالة ما يزيد على الأربعة عشر قرنًا، قطعت فيه البشرية أشواطًا عريضة، وقفزت خلالها قفزات عملاقة، في كثير من مجالات العلم، أقول العلم وليس المعرفة لأن البشرية في مجال المعرفة دون الأمية بمسافات ومسافات، ذلك أن المعرفة هي اكتشاف الحقائق ذات الصلة في مجال الفكر والاعتقاد الصحيح وتحديد الضوابط الأخلاقية والروحية والإيمانية من غيب وشهادة، هذا هو مجال المعرفة، وأين البشرية منه؟.

أقول، لقد قطعت البشرية في مجال العلم بالمادة الصماء واكتشاف بعض أسرارها ما جعل المادة أقرب إلى وعينا ببركة هذه الكشوف العلمية، وأقرب إلى الانتفاع بها في مجالاتها من تسخير الطاقة ووفرة الإنتاج وما أشبه ذلك.

فكان من هذه الرسالة المحمدية - وليتجلى لطف الله بعباده من خلالها أكثر - أن سبقت كشوفهم العلمية، وأخبرت عن أسرار في المادة وأسرار في قوانين الطبيعة، هي أبعد في المدى من خطوة الطفل التي اجتازها إنسان العلم إلى يومنا هذا.

ففي أوائل أيام الفتح العلمي - إذا صح التعبير- في مجال المادة، كاد يشوش على إيمان الناس وعقولهم، من خلال الاحتفالات الصارخة بالاكتشافات العلمية، حتى كاد بعض المؤمنين أن يروا في الاكتشاف العلمي الموافق للرسالة الخاتمة سبب قوة لإيمانهم برسالتهم وخالقهم ورسولهم، ولكن بعد فترة من الزمن، وعلى وقع الكشوف العلمية المتلاحقة، أخذت تعتدل الحقيقة للناظرين، فقد كشفت الرسالة النقاب عن بعض علومها في مجال المادة والطبيعة والكون.

فهذه مطالعات الرسالة وقولها في أصل تكوين الإنسان، وأنه بدأ من التراب أو من الطين اللازب، وهذا هو العلم اليوم وبعد مرور أربعة عشر قرنًا يؤكد هذه الحقيقة.... وقول الرسالة في عالم الأجنة، وفي الرياح اللواقح، وفي بصمة الإبهام، وفي حقيقة النسل، وفي سبح الأفلاك... إلى العديد من الحقائق العلمية في عالم الكون والمادة، و نحن على يقين تام بأن الاكتشافات العلمية ستبقى في سير ارتقائي دائم، وإلى جنب ذلك سيكتشف الفاتحون أنهم في مرتبة التابع لا في ذروة الفاتح **{وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً}**([5]).

يتبع =

---

[1] - المائدة: 41.

[2] - المائدة: 57.

[3] - المائدة: من الآية64.

[4] - البقرة: 176.

[5] - الإسراء: من الآية85.

تتمة مقال =الرسالة النبوية الخاتمة

وليس البحث في هذه النقطة لبيان أن القرآن كتاب متخصص في الجانب العلمي كما قد يظن البعض، وإنما كان الداعي هو بيان جانب الشمولية والجامعية، وبهذا لا يخرج القرآن عن كونه كتاب نور وهداية، بل دخول هذه الميزة فيه هي من نوره وهدايته.

من هنا كانت الرسالة المحمدية قد ضمنت في محتواها هذا الجانب وأعطته حيّزًا في مساحتها، على قاعدة السحر الذي جاء به موسى (عليه السلام)، ليعرف أهل هذا الفن ونشطاؤه الكبار وأعلامه الأعلام أنهم مربوبون لقدرة هي أكبر من قدرتهم، وأن من أقدرهم على صنيعهم هذا هو أقدر منهم وأعلى، فبإبطاله لسحرهم تجلّى لهم لطف من ألطاف الله تعالى، فعرفوا من خلاله صدق موسى في دعواه النبوة فآمنوا به.

وأعتقد جازمًا أنه كلما اقترب العلم من أسرار الوجود وآياته أكثر، سيتجلّى سر آخر من أسرار صدق الرسالة وصدق الرسول (صلى الله عليه وآله).

فهذه الرسالة المحمدية الخاتمة بنت جامعيتها وشمولها للحقائق العلمية الكونية، لتواكب الأزمان ومسيرة الإنسان، مع قيام الحجة عليه، إذ برهان صدقها لكل ذي علم وعقل بين يديه، ومن شواهد ذلك في القرآن الكريم:

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} ([1]).

وقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً}([2]).

وقوله تعالى: {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}([3]).

وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مَنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}([4]).

وقوله تعالى:{ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}([5]).

ثالثًا: مما بني عليه جامعية الرسالة المحمدية وشمولها، انفتاح الانسان على مدنيّته، التي تشمل فيما تشمل بحسب تعبيرات زماننا: حقوق المرأة والطفل، وضمان الشيخوخة، ونوع النظام، وحقوق الأقليات، ونظام العلاقات المجتمعية، والنظرة إلى الحياة، والحاجة أو عدم الحاجة إلى النظام الأخلاقي والقيمي، ومقاييس الرقي والتخلف، وتعامل الإنسان مع الطبيعة، وحرية الإنسان وحدودها، وصفات الحاكم، وقانون الأحوال الشخصية، إلى غيرها من العناوين ذات الصلة بمدنية الإنسان وقضاياها.

ولا شك أن فكر الإنسان خلاّق ويُمتِعُه الابتداع والسبح في فضاءات الفكر أو ما يخاله من الفكر، لذا كثرت النظريات حول كل واحد من هذه العناوين التي ذكرناها أو التي لم نذكرها، وعليه، كان لا بدّ - رحمة بهذا الإنسان إن شاء الرحمة وإتمامًا للحجة عليه- أن تتطرق الرسالة المحمدية المطهرة لعرض فلسفاتها وأفكارها حول هذه القضايا ذات الطابع المدني في حياة الإنسان([6]).

وهذه بعض الشواهد القرآنية على اهتمام الإسلام بالجانب المدني من حياة الإنسان:

قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}([7]).

وقوله تعالى {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ}([8]).

وقوله تعالى {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ}([9]).

وقوله تعالى **{وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً}**([10]).

وقوله تعالى {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}([11]).

وقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ} ([12]).

إلى كثير من الآيات التي تعالج قضايا في حقل مدنية الإنسان واجتماعه.

رابعًا: بما أن الرسالة المحمدية الطاهرة تدعو إلى الإيمان بالغيب - ومعروف أن مساحة الغيوب عريضة جدًا- من الإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر، وإخبارات الكتاب العزيز المستقبلية من مثل قوله تعالى: **{وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}**([13]).

ومن مثل قوله: **{فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ}**([14]).

ومن مثل قوله تعالى - وإن كان بلسان التحذير ولكنه غيب مستقبلي واقع ساقه الكتاب العزيز بلسان التحذير- **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}** ([15]).

فهذه الآيات الشريفة من غيوب الرسالة -وإن سيقت بلسان التحذير- إلى غيرها من آيات غيب المستقبل، وآيات الغيب السابق، والغيوب في مطاوي العوالم، من مثل القضاء والقدر في الآجال والأرزاق.. إلخ، ممّا يؤكد على اتساع مساحة الغيوب وتنوعها، وقد اعتبر الكتاب العزيز الإيمان بالغيب مقوّمًا للتقوى إذ يقول:**{ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}**([16])، وهل من سبيل إلى الإيمان بالغيوب إلا عن طريق الإخبار المؤيِّد للعقل في مساحة منه، وعن طريق الإخبار، خاصة في الأمور التي ليس للعقل فيها مجال، فلا بدّ حينئذ أن تبيِّن الرسالة الشريفة الغيوب وتعرّف، بها بحيث يزول حجاب البعد عن تلك الغيوب، وتصبح لدى النفس بقرب الشهادة أو أقرب، مما يعني لزوم بذل عناية بيانية حول الغيوب، ولذلك فعلاً اتسعت رقعة البيان الرسالي إلى هذه الجهة وهذا الجانب ليكون هذا مبررًا آخر من مبررات جامعيتها وشمولها، ونكتفي بذكر هذه الدواعي الأربعة مما بنيت عليه جامعيتها وشمولها وإحاطتها، ونحن في غنى عن الاستشهاد للجامعية بعد قوله تعالى: **{مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ}**([17]).

يتبع =

---

[1] - يونس: 5.

[2] - الفرقان: 45.

[3] - يّـس: 39-40.

[4] - الحج: 5.

[5] - المؤمنون: 14.

[6] - إن عدم تطرقنا هنا لبلورة نظام حكم للإسلام لا يعني عدم وجود هذا النظام، ويكفي أن نشير إلى فترات الحكم المحدودة في حياة النبي (صلى الله عليه وآله) وحياة أمير المؤمنين (عليه السلام) للإشارة إلى إن الإسلام لم يخلُ من نظام حكم، وإلا فهل كان حكمهما من غير هدى ولا كتاب منير؟

[7] - النحل:90.

[8] - الفتح: من الآية17.

[9] - البقرة:180.

[10] - الإسراء: من الآية34.

[11] - آل عمران:110.

[12] - النساء: من الآية135.

[13] - القصص: 5.

[14] - الدخان: 10.

[15] - المائدة: 54.

[16] - البقرة: 2-3.

[17] - الأنعام: من الآية38.

تتمة مقال =الرسالة النبوية الخاتمة

الحقيقة الثانية:

عالمية الرسالة النبوية الخاتمة

وأقصد بعالميتها دخولها في حيز المسؤولية على كل عاقل، ولا أقصد أهليتها وصلاحيتها لقيادة الإنسانية في كل زمان ومكان، فإنه من القضايا المسلمة.

والذي يؤكّد عالميتها - بالمعنى الذي بيّناه- أن العاقل قد قامت عليه الحجة بعقله أن يطلب الأمن من الخوف والطمأنينة من المخيف، فمن تناهى إليه من العقلاء خبر الرسالة والرسول فبحث عن الخبر، فلا محالة يتنجز عليه الإيمان بها والعمل بأحكامها.

وإذا ترك البحث عن الخبر فقد ترك ما وجب، لأن البحث عنها ناجز بالخبر لا محالة، أما من كان من العقلاء ولم يتناه إليه الخبر، ولم يسمع برسول ولا رسالة ولا خطر يوم القيامة، فقد تنجز عليه من أحكامها ما توفر على شرطه، وهو ما يرجع إلى مدركات عقله، فشرط وجوبه إدراك حسنه وشرط حرمته إدراك قبحه.

والباقي الذي لم ينجّز من أحكامها وبقية شؤونها فلفقد شرطه، لأن العاقل الذي لا علم له المعذور في عدم علمه، هو كالعاجز في عدم التنجز في حقه.

إذن هي عامة البلوى لجميع البشر في أي من ظروف مكانهم أو زمانهم، قال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}([1])، وقال {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}([2])، وقال {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}([3]).

الحقيقة الثالثة:

إنّ هذه الرسالة العالمية الجامعة قد عرضت لبيان مفاهيمها والإعراب عن مضامينها بطريقتين ومستويين من الإفهام والتبيين:

المستوى الأول الإجمال والمستوى الثاني هو التفصيل.

كما أن المستوى الأول والثاني تأدّى كل منهما بأسلوبين، وهذا رسم بياني توضيحي:

البيان

مجمل مفصل

محدود واسع تفسير تأويل

إيضاح المقصود من ألفاظ هذا الرسم البياني:

البيان الرسالي: نقصد به طريقة الإفهام والتفهيم عند الرسالة.

المجمل: مقابل المفصّل على طريقة المتون المضغوطة، المحتاجة إلى الشرح والتفصيل ليتضح المراد منها.

المفصّل: ظهر معناه مما سبق في المجمل.

المجمل المحدود: هو الكلام أو البيان الذي حدّد فيه العنوان المراد بيانه على مستوى المبدأ دون الدخول في التفاصيل، ومن أمثلة ذلك بعض الآيات المحكمات.

المجمل الواسع: هو المجمل من ناحية التفاصيل والعنوان معًا، فهو في الغالب غير واضح حتى في تحديد العنوان، فضلاً عن التفاصيل والتفريعات، ومثاله المتشابهات.

التفسير: هو كشف النقاب عن معنى اللفظ، على مستوى العناوين وعلى مستوى التفاصيل والتفريعات، بما للّفظ من دلالة مباشرة عليها.

التأويل: هو انطباق اللفظ على المعاني على مستوى العناوين والتفاصيل والتفريعات، بمعونة المشابهة والقرب مع التفسير، وأكثر ما نلحظ التأويل في غير الأحكام، ونلحظه بوضوح كبير في عالم الأحداث.

وسيتضح المراد من هذا الرسم البياني لأسلوب عرض الرسالة لمعانيها في طي هذه النظرة إلى الحقيقة الثالثة.

يتبع =

---

[1] - سبأ: 28.

[2] - آل عمران:19.

[3] - آل عمران:85.

تتمة مقال =الرسالة النبوية الخاتمة

موطن المستوى الأول:

المستوى الأول المعروض بطريق الإجمال المحدود والإجمال الواسع، نلحظه ونحصي موارده في المادة المعرفية الأولى للرسالة الخاتمة، أي في الكتاب العزيز.

فاعتقادنا بالكتاب العزيز أنه بيان رسالي مجمل غير مفصّل، وأن إجماله هذا تارة كان محدودًا وأخرى كان واسعًا، وهذا لا ينافي أبدًا ما يمكن أن نفهمه من مثل قوله تعالى:**{ألر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}**([1])، وقوله تعالى: **{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}**([2])، وما يجري مجرى هاتين الآيتين الواضحتين، إنه كتاب بيِّن مفصّل جامع، نعم هو كذلك في نفسه وعند الذين أوتوا علم الكتاب، فهو كتاب واضح في جميع معانيه لدى هؤلاء كما يقول تعالى: **{بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}**([3])، هو كذلك عند الراسخين في العلم، هو كذلك عند أعدال الكتاب.

أما بالنسبة لنا نحن - القسم الثاني من الناس وهو عامتهم، ومنهم المتعلمون أجمع، وإطلاق صفة (العالِم) على بعضهم إنما هو بعلاقة المشابهة لا بالانطباق الحقيقي الواقعي - فليس الكتاب إلا مجملاً غامضًا مرددًا، موقعًا لوعينا في الجملة في الحيرة والتردد، فهو كتاب لا يشبع وعينا بالحاجات المعرفية التي هدفت الرسالة تبليغنا إليها وإيصالنا إلى مراتبها، لأنه وإن كان في حد ذاته مما لا تنتهي معارفه ولا يقلّ فيض عطائه ولا يعيى عن كثرة الرد، إلا أنه كتاب بنى بيانه على طريقة وأسلوب تعبير، يجعله أمام مرآة وعينا وقدرة عقولنا وآلات إدراكنا مطبقًا على الإجمال ولو في الجملة.

فأنّى لنا أن نهتدي من خلال آياته إلى حقائق الدين ومعالم الرسالة ومفصلات أحكامها،وهو حمّال وجوه تستدخلها بطون وبطون، ولها أَوْلٌ بعد أَوْلٍ، وإشراقة بعد إشراقة، وظهور بعد ظهور، وعمق يطوي أعماقًا، ما يجعل الجزم بمراداته والعلم بحقائقه قضية غير ميسَّرة لفهمنا نحن، هكذا يتبدّى الكتاب العزيز إلى فهمنا، ولذا

اعتبرنا أن المستوى الأول - أي المجمل بقسميه المحدود والواسع - كان موطنه الكتاب العزيز.

موطن المستوى الثاني:

المستوى الثاني من البيان الرسالي المعروض بطريقة التفصيل تفسيرًا وتأويلاً نلحظه ونحصي موارده في المادة المعرفية الثانية للرسالة الخاتمة، أي في موطن كلمات الأنوار الساطعة والأعلام اللائحة محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته علي بن أبي طالب وأبناءه الأحد عشر إمامًا عليه وعليهم السلام، فإن بيانهم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم كان بيانًا مفصلاً لما أجمله الكتاب العزيز، تارة عن طريق تفسير الآيات وكشف اللثام عن معانيها ومبانيها، وتارة أخرى عن طريق انطباقات المعنى وما يؤول إليه ويستقر في الدلالة عليه بحسب المناسبات وحيثيات الظرف.

ولمّا كان التأويل هو انطباق الآيات الشريفة على المعاني والأحداث بحسب المناسبات وحيثيات الظرف المكاني والزماني، فقد لاحظنا أن بيان رسول الله (صلى الله عليه وآله) كان الغالب عليه طابع التفسير، ويختلف عنه بيان عترته الطاهرة، فالغالب في بيانها لمناسبات الظرف هو التـأويل.

فإن عمر الرسول في بيان الرسالة امتدّ إلى ثلاث وعشرين سنة، ما جعل الحاجة إلى التفسير أكثر منها إلى التأويل، لأن طابع الدعوة كان طابعًا تأسيسيًا، بينما بعد شهادة الرسول (صلى الله عليه وآله) انقلبت حركة الصراع إلى داخل الأمة، مما فرض الحاجة إلى التأويل، وعلى ضوء هذا المستجد وهذه الحقيقة، يأتي السياق الطبيعي لكلمة رسول الله (صلى الله عليه وآله) عندما قال لعلي (عليه السلام): [يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، تقضي ديني وتنجز عداتي وتقاتل بعدي على التأويل كما قاتلت على التنزيل][4].

السرُّ الكامن:

هذا الذي عرضت إلى ذكره واعتبرته الحقيقة الثالثة من حقائق الرسالة الخاتمة أحبّ أن أوضح بعض ما بُنِيَت عليه.

فأن يتخذ بيانها هاتين الطريقتين، فلا بدّ أن هناك سرًا يقف خلف هذه الظاهرة، فكان بإمكان السماء أن تنزل كتابًا من عندها بطريقة واضحة وأسلوب سهل ميسّر، يعقله كل قارئ دون الحاجة إلى معين يعين على فهمه ومعرفة مواقع كلامه ومرامي آياته الشريفة.

فلماذا اختارت السماء هذه الطريقة في إبداء معارف رسالتها، وهي قادرة على بيان ما تريد، دون الرجوع إلى الرسول ومن يقوم مقامه في التعريف بها والإظهار لبطونها وتفصيل مجملاتها ومواقع أَوْل الآيات وانطباقها عبر الزمن؟.

والذي اعتقده سببًا وراء هذه الظاهرة المشهودة للمتأملين، أو على الأقل من الأسباب الحقيقية الأولى وراء هذه الظاهرة، هو أن يربط الله الأمة بقادتها الحقيقيين وأمنائها الحقّانيين وساداتها الواقعيين، وأهم ميزة في القيادة والسيادة الصحيحة هي العلم والمعرفة، وخير ميدان لاختبار النفوس لمعرفة العالم من الجاهل، والأعلم من العالم، والراسخ من الزائل، والثقيل من الخفيف، والعميق من العابر - بعد تسليم الأمة بمرجعية القرآن وفخامته وقداسته ولزوم التدين به- هو العلم بمواقع كلامه وأنوار آياته.

لأجل ذلك أجمل القرآن الكريم بيانه وعقّد خطابه، وبناه على الإشارة الخفية واللطيفة المخفية، وساقه سوقًا لا تستجلي غوامضه إلا نفوس طاهرة زكية **{لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ}**([5])، ليظهر الله عز وجل بذلك فضل الفاضل وعلم العالم وحقانية المحق، وكذلك ليظهر كذب الكاذب وخدعة الخادع وبطلان المبطلين، فيقع ذلك في مرأى الأمة ومسمعها **{لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ}**([6]).

وإننا إذ نقول هذا القول وندّعي هذه الدعوى، لا نزيد بشيء عما جاء به القرآن نفسه، إذ يقول تعالى **{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}**([7]).

وعلى هذا الأساس فرَّع الله عز وجل وجوب الرجوع في معرفة الكتاب وحقائق الخطاب، فقال عز وجل **{فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ}**([8]).

وقوله تعالى{أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً* وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ}([9]).

والذي يلوح لنا من سياسة الرسالة مع البيان إذ كان مجملاً لدى وعينا نحن، مفصّلاً في كلام الرسول وكلام آله صلى الله عليه وعليهم أجمعين، ويظهر بذلك فضل رسول الله (صلى الله عليه وآله) وفضل آله الأطهار عليهم السلام، بأعظم ميزة وأشرف منقبة اختص الله بها بشرًا من الأولين والآخرين، وهي فهم كتاب الله الجامع الذي فيه تبيان كل شيء، والذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها **{مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ}**([10])، فالعالم به المحيط بأسراره قد علم من علم الله، وحوى من مكنون سر الله، وأحاط بغامض أمر الله، ما جعله خزانة أسرار الله، ومستودع علم الله، وترجمان وحي الله، وعِدل كتاب الله، وثقل كلمة الله، ومظهر أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، والمشتمل على نور الله المودع في هذا الكتاب، فإذا كانت هذه المنقبة لا تربط الأمة بآل محمد، وبالتالي بمحمد نفسه (صلى الله عليه وآله)، وبالتالي بالكتاب الذي ندّعي الإيمان به، فلا ميزة لهم، فأي عقال يربط هذه الأمة إذن؟

والخلاصة: إننا نعتقد أن من أسرار جعل الكتاب العزيز مبنيًا على إجماله الواضح وفق ما عرضنا لتوضيحه، وجعل بيان رسول الله وبيان آله الأطهار مفصلاً، يهدف فيما يهدف إلى إظهار فضله وفضل أهل بيته، حتى لا يكون عذر لأحد في التخلف عن ولايتهم وطاعتهم والتبرؤ من أعدائهم، فعلى عدوهم لعائن الله ورسله وملائكته والناس أجمعين.

ختام

هذه بعض من حقائق الرسالة النبوية الخاتمة، واستيفاء الكلام حول جميع حقائقها العامة محتاج إلى مجال آخر، على أن هذه الحقائق الثلاث التي عرضنا لها أيضًا، هي بحاجة إلى تفصيل أكثر وبيان أوسع، نسأل الله التوفيق لذلك.

انتهى

---

[1] - هود:1.

[2] - النحل: 89.

[3] - العنكبوت من الآية 49.

[4] - كفاية الأثر- الخزاز القمي ص 135.

- [5] الواقعة:79.

[6] - الأنفال: من الآية42.

[7] - آل عمران:7.

[8] - النحل: 43.

[9] - النساء: 82- 83.

[10] - الأنعام: من الآية38.

الهوامش

* مبلّغ ديني ومدرّس في الحوزة العلمية.

الدخيل في اللغة العربية

د. حسن جعفر نور الدين

.

د. حسن جعفر نور الدين *

سبق وأُشير في حديث سابق في هذه المجلة الكريمة([1]) إلى مواطن تأثير اللغة العربية وفاعليتها ودورها الفاعل في لغات العالم، وأنه ما من لغة إلا وتأثّرت وأخذت من غيرها ألفاظًا شتّى، وتعابير ومصطلحات متنوعة، انسجامًا مع طبيعة الحياة، وروح التطوّر، وحتمية العلاقات المتنوّعة التي تنشأ بين الشعوب، إذ لا لغة بلا مجتمع، ولا مجتمع بغير لغة، ولا مجال لأيّ تطوّر بشريّ وإنسانيّ إلا بالتعاون المُثمر والمفيد عبر روابط متنوعة، تُفعِّل من عملية التحاور والتخاطب والتواصل، وأعظم وسيلة لتحقيق هذه المقوّمات هي اللغة.

وإذا كان البحث السابق قد تحدّث عن تأثير اللغة العربية في غيرها من لغات العالم، فالبحث اليوم معاكس لما سبقه، إذ أنه يتحدّث عن تأثير اللغات الأجنبية في لغتنا الحيّة، لغة القرآن والإسلام والحضارة الإسلامية، ما الذي أخذته هذه اللغة؟ وما الذي طرحته ولم تقبل به؟ وهل هناك من قيود وشروط لحمل الدّخيل على اللغة، واستقباله في حرمها، واعتماده مصطلحًا أو لفظًا نهائيًا؟

ولا يخفى على أحد ما كان للعرب من صِلات وعلاقات منذ الجاهلية وحتى اليوم مع جيرانهم وسائر الدول والشعوب التي يتبادلون معها المنافع والإمكانات والخبرات، وما كان للفتوح الإسلامية شرقًا وغربًا من أثرٍ كبيرٍ على مستوى اللغة والعلاقات والتّجارة والثقافة، ودائمًا يكون للعلاقات بين الدول أثر ذو حدين، مؤثّر ومتأثّر، ومن هنا فإن كل لغة تأخذ وتقدّم، تهضم ما يتلاءم مع قياساتها اللغوية، وتُدخل ما تراه مناسبًا لتلحق بركب الحضارة والتطوّر الذي ينمو يومًا بعد يوم، ويفرض مصطلحات ومسمّيات علمية لا مناص من أخذ الموقف منها، هذا في مواجهتنا لما يستجدّ كل يوم في العالم أجمع من اختراعات وإنجازات على صعيد الفلك والطب وعلم النجوم والهندسة والرياضيات والفيزياء والآداب... وما تُولّده هذه من صيغ ومصطلحات جديدة، كذلك فيما نقدّمه نحن بلغتنا على الصّعد نفسها، علمًا أننا ما زلنا مقصّرين في هذه الميادين، وعلماؤنا وعباقرة الإنسانية من أبنائنا لم يجدوا إلا الغرب مكانًا يُنجزون فيه خُططهم ويُشبعون فيه نهمهم إلى العلم والاختراع، رغم المخاطر التي يتعرّضون لها، والتي أودت بنخبة من المخترعين منهم، وهذا الأمر ليس موضوع البحث الآن.

بناءً عليه، ما الذي أخذه العرب وأضافوه إلى لغتهم من اللغات العالمية؟ وما الذي عرَّبوه، وما الذي تركوه كما هو دون تعديلٍ؟

هذه الأسئلة والاستفسارات جميعها تدفع إلى تحديد معنى كلّ من المعرَّب والأصيل والدخيل.

أما المعرَّب: والاسم الآلي العملي له هو التّعريب، فيترك لدراسة منفصلة خاصّة، لأهميته وتشعّبه ودوره الأساس في ضخّ اللغة بأنماط من الاشتقاقات المتنوّعة.

يبقى الأصيل والدخيل، وهما متعارضان مائة بالمائة، ولا يمتُّ كل منهما بصلة للآخر أبدًا.

فالأصيل: من الأصل أو الأساس، هو الكلمة العربية النقيّة، التي لا لبس فيها ولا شك بعربيتها الصّافية، هي كلمة معروفة ومتناقلة ومستعملة في نتاجنا العربي ومتفق على أنها مستعملة وشائعة منذ الجاهلية وحتى اليوم.

أما الدخيل: فهو الهجين والغريب، والذي لا يمتّ بصلة في أي من جوانبه إلى اللغة العربية، لأنه دخل كما هو في زيّه وسحنته وشكله وإطاره الأجنبي، كما أنه اعتمد كما هو دون تغيير وتبديل وإضافة وحذف من قبل مجامع اللغة العربية، وموافقة اللغويين العرب([2]).

إذن هذا الدخيل بقي كما هو لعدم القدرة على تعريبه، وإدخاله إلى صميم اللغة العربية، وإخضاعه لنواميسها وقواعدها الاشتقاقية، فهو اللفظ الأجنبي الذي دخل ويدخل اللغة العربية دون تغيير مثل: الأوكسجين- التلفون- راديو- تلغراف.. إلخ.

والدخيل في اللغة هو الذي يداخلك في أمورك، وفلان دخيل في بني فلان، إذا كان من غيرهم فتدَّخل فيهم، والدّخيل: المُداخل المُباطن، وداء دخيل: داخل.

أما مصطلح "الدخيل" اللغوي عند ابن منظور في لسان العرب، فلا يعدو أن يكون إشارة مُجتزأة إلى جوهر المصطلح بمفهومه الأعم الأشمل، وهي بذلك تدلّ على فهمٍ متطوّر جليّ لظاهرة الدّخيل في اللغة العربية، يقول: وكلمة "دخيل" أُدخلت في كلام العرب وليست منه، استعملها ابن دريد كثيرًا في الجمهرة([3]).

والحقيقة أن هذا الاستعمال هو "تعريب"، تبعًا لقول الجوهري في الصّحاح: تعريب الاسم الأعجمي أن تتفوّه به العرب على مناهجها، تقول: عرّبته العرب وأعربته أيضًا.

ولم يستوِ الدخيل مصطلحًا خالصًا متّفقًا عليه عند العرب بالدّقة والتحديد وإن حظي باهتمام السّلف في رحلة التصنيف في غريب القرآن، ومعرفة تنقية اللغة بعد ذاك إلى أن جاء الجواليقي، فأضفى عليه مزيدًا من الإيضاح عندما نظر إليه بالقياس إلى العربي الأصيل أو الصريح، حيث قال في مقدمة كتابه "المعرّب من الكلام الأعجمي": ((هذا كتاب نذكر فيه ما تكلّمت به العرب من الكلام الأعجمي، ونطق به القرآن المجيد، وورد في أخبار الرسول (صلى الله عليه وآله) والصّحابة والتّابعين، وذكرته العرب في أشعارها وأخبارها، ليُعرف الدّخيل من الصريح، ففي معرفة ذلك فائدة جليلة، وهي أن يحترس المشتق، فلا يجعل من لغة العرب لشيء من لغة العجم))([4]).

فالدّخيل والكلام الأعجمي هنا وُضِعَا في مقابل العربي الصحيح، وتلك صورة تزيد مفهوم الدّخيل وضوحًا وتعزّز استقراره مصطلحًا.

وهكذا تعمّم هذا المصطلح "الدخيل" بعد ذلك في تعابير حديثة من مثل "المصطلحات الدخيلة، والعلوم الدخيلة" وما شابه ذلك مما استُعير وأُخذ واعتُمد من اللغات الأخرى.

وإليك بعض النماذج من الكلام الدخيل على اللغة العربية:

بعض ما أخذه العرب من الفرس:

وهو كثير جدًّا، وسنشير إلى الكلمات والمصطلحات ممّا عُرف من دخيل توزّعته المصادر اللغوية من شعر ونثر ومعجمات وأقوال.

وفي العصور الماضية -خاصّة في العصر الجاهلي- لم يكن العرب يتحفّظون أو يحتاطون من أخذ ألفاظ أجنبية، ورغم ذلك كان ما أخذوه قليلاً، علمًا أن صِلاتهم بالفرس كانت وثيقة عن طريق المناذرة في الحيرة ودومة الجندل وجنوبي العراق، مما يُسهم في فتح بابٍ للتبادل اللغوي عبر الأخذ والعطاء، والمحادثة والمحاورة، وغير ذلك مما يمكن أن يخلّف آثارًا لغوية لا يمكن تجنّبها والوقوف في وجهها.

ونقف قليلاً عند مثال واحدٍ أسهم في تغذية اللغة العربية ببعض الدخيل الفارسي، هو الأعشى صناجة العرب، أو ميمون بن قيس، وكان لاحتكاكه برهبان الأديرة، وبالجواري التركّيات، ووقوفه على مسمَّيات غريبةٍ يعجُّ بها مجلس خمر في بيئة فارسية مُترفة، ومشاهدته لألوان من الرّياحين وأنواع من آلات الطّرب التي لم يعرفها العرب، كل ذلك جعله يقتبس ويضمّن شعره كثيرًا من الألفاظ الفارسية، حتى ولو جاء ذلك من باب الهزل والاستطراف.

وسأشير إلى بعض ما أدخله الأعشى في شعره من الفارسية:

أس - إبريق - بربط (آلة طرب) - بستان - بنفسج - خندق - راووق - زبرجد - زمهرير - زنبق - زير - سنبك - سوسن - صناجة - طنبور - شيدارة (بساط منقَّش وثمين، أو بُرد يشق ثم تلقيه المرأة على عنقها من غير كُمَّين ولا جيب)، وقال الأعشى:

إذا لبست شيدارة ثم أرمَثت	بمعصمها والشمس لما ترجل

مكوك (آلة تخص النسَّاج والخُيّاط)- مكيال - نمارق - ياسمين.

والملاحظ أن هذه المسمَّيات تتعلّق بآلة العيش، ومجالس الطّرب، إلى جانب ألفاظ تتعلّق بالعمران، أو باللباس، وغير ذلك مما لم تعرفه العرب على تلك الصورة.

ومما يشبه هذه الألفاظ أو المسمّيات أخذ العرب ألفاظًا فارسية تتّصل بالثياب والألوان من مثل: إستبرق - جورب - دخدار (ثوب)- ديباج - زركشة - سروال - جوخ - طيلسان - تبان - خزّ - زرياب (ماء الذهب).

كما أدخل العرب ألفاظًا فارسية تتعلّق بالمعادن والأحجار الكريمة، مثل: فولاذ - زئبق - دانق - إبريز - جوهر - خنجر - جنزار - تنك - فيروز - لازورد - توتياء([5]).

ومن النباتات والرّياحين والأشجار المثمرة وغير المثمرة أخذ العرب ألفاظًا لم تكن معروفة في لغتهم مثل: سنديان - صنوبر - تفّاح - ترمس - مردقوش (الزعفران)- أزدرخت أو زنزلخت - نسرين - ياسمين - باذنجان - جرجير - جزر - خيار - سرو - لوز - زعرور - زنبق - هليون - أفيون.

وأخذوا من أسماء الحيوانات: سنجاب - سنّور - جاموس - دلق (حيوان شبيه بالسنجاب) - ومن الطيور: كروان - ببغاء - باز - شاهين - قُبَّح (الحجل).

ومن الأشربة والأطعمة: جردق (الغليظ من الخبز) - جلّاب - شوربا - زلابية - رشته - بوظة - بقلاوة - سنبوسك - برغل - فالوذج - كعك.

وسأذكر على سبيل المثال لا الحصر ما يمكن وضعه في خانة الألفاظ العامة الإدارية والتنظيمية:

ديوان - باره - نموذج - خندق - بريد - برنامج - دستور - سرداب - دهليز - عسكر - سندان - صولجان - فرند - سباهي (رتبة عسكرية، تحوّل معناها إلى مالك القرية) - قيروان - بهلوان - تاج - مهرجان - مومياء([6]).

بعض ما اقتبس من الآرامية:

كانت اللغة الآرامية حوالى سنة 500 قبل ميلاد المسيح اللغة العامة الرسمية في كل بلاد الشرق الأدنى القديم، بعد أن حلّت مكان العبرية والكنعانية، في حين جعل الفرس آنذاك الآرامية لغتهم الرسمية.

وقد اقتبس العرب من السّريان، وهم في مقدّمة الشعوب الآرامية في الجاهلية والقرون الأولى للإسلام، فأخذوا منهم حتى العصر السادس بعد هجرة الرسول (صلى الله عليه وآله) مئات الكلمات التي تختصّ بالزراعة والصناعة والتّجارة والملاحة والعلوم، كذلك استعاروا منهم ألفاظًا كثيرة متعلّقة بالنصرانية بعضها سرياني والآخر من أصل يوناني.

وقد انتشرت اللغة الآرامية الغربية، المشتقّ اسمها من آرام، اسم سورية في العبرانية، انتشرت بلهجات مختلفة في الأناضول، سورية، لبنان، فلسطين، مصر، وشبه جزيرة العرب.

وقد بلغت السريانية - وهي أشهر لغات الآرامية الغربية - أوجّها وازدهارها من القرن الثالث إلى الثامن، عندما كانت لهجة (الرها) السريانية اللغة الأدبية الوحيدة لكل نصارى الشرق الأدنى، ثم تقلّص نفوذها كثيرًا بعد الفتح العربي، فصارت لغة كنسيّة لا غير، تُتلى بها صلوات القداس في طائفتي الموارنة والسريان، وفي فترات الفتح العربي كان أدباء سورية منكبّين على ترجمة أشهر مؤلفات اليونانيين إلى السريانية، وقد حفلت أديرة رهبانهم بتلك الترجمات النفيسة، فتردّد إليها أدباء عرب كثيرون، ونقلوا إلى لغتهم قسمًا كبيرًا من كنوزها([7]).

يتبع =

---

[1] - مجلة [رسالة النجف]، السنة الأولى، العدد الثالث: ص 118.

[2] - ابن منظور، لسان العرب: ج81 ص 241؛ حسن نور الدين؛ الموسوعات والمعاجم بين الماضي والحاضر ص 20 إلى 24.

[3] - لسان العرب: ج11 ص16-17.

[4] - الجواليقي، المعرّب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم: ص15، الجواليقي هو أبو منصور، موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر المتوفى سنة 540 هجرية. التراث العربي، عدد 71-72، د. مسعود البابا: ص65-66.

[5] - الأب رفائيل اليسوعي، غرائب اللغة العربية: ص؛ مجلة التراث العربي عدد 71و72- د. مسعود البابا: ص 69-71.

[6] - مجلة التراث العربي: عدد 71 و72؛ د. مسعود البابا: ص 70-71.

[7] - غرائب اللغة العربية: ص 170-171.

.

تتمة مقال - الدخيل في اللغة العربية

كلمات مقتبسة من الآرامية ومعناها في العربية([1]):

آب: الشهر	بابوس: طفل - صبي صغير برَّاني: خارجي	مثقال: وزن معروف
أبَّ: ثمرة	برية: صحراء	جبورة: كبرياء
أبَّار: رصاص أسود	بريمة: مثقب	جريب: نوع مكيال
ابلّ: تنسك	بقعة: قطعة أرض	جرجس: البعوض الصغير
أسّ: أساس	بيب: قناة	جرام: نواة أو تمر يابس
أسا الجرح: داواه	بيعة: كنيسة	جسر: معبر على نهر
إصلين: سيف صقيل ماض	تكة: رباط السروال	مجلب: صوت
أطلس: نسيج حرير رفيع.	تنور: مكان النار	جلواز: شرطي
إفك: كذب	حرِّيف: لاذع الطعم	حاني: خمار
إقنوم: شخص	حول: قوة	حرورية: حريّة
أكَّار: حرّاث	خروب: خرنوب	خبص: خلط
أنبا: أب روحي - مرشد باكورة: أول الثمر	ثبور: هلاك	خبل: حزن

ما أخذه العرب من اللاتينية:

لم يكن العرب في عصورهم الأولى يفرّقون بين اليونانية واللاتينية لغويًا، إنما ما كان ينسب إلى هاتين اللغتين يوضع تحت اسم الروميّة نسبة إلى بلاد الروم، وقد بدأ الاتصال والاحتكاك بين اللغتين قديمًا، خاصة في بلاد الشام، واستمر عن طريق التجارة والنشاط الديني المسيحي، ثم أيام الحروب الصليبية، وبلغ ذروته في الصلات والعلاقات السياسية والثقافية عن طريق الأندلس وصقلية وغيرهما من المرافئ والثغور، وقد وصل بعض الدخيل اللاتيني متأخرًا عن طريق اللغات الأوروبية وَرَثَة اللاتينية، ثم إن أكثره اندمج في اللغة العربية بواسطة اليونانية أو الإيطالية.

بعض الدخيل اللاتيني مع معانيه([2]):

الاصطبل: مربط الدواب إفريز: صنف بناء. رساطون: شراب من خمر وعسل. سجل: الختم. بلاط: بمعنى القصر. بترول: نفط. إيلياء: بيت المقدس. قرصان: لصوص البحر. فيتامين: حياة. تجارة: بضاعة. منديل: نسيج يمسح به العرق وغيره، منشفة.	برذون: فرس غير أصيل. دوق: لقب شرف دون الأمير كربون: عنصر الفحم في الكيمياء. كردوسة: طائفة كبيرة من الخيل. مكرك: تجارة، بضاعة. ميل: مقياس لطول مسافة. سجنجل: مرآة ذات زوايا ست برجد: ثوب غليظ مخطط ريف: أرض قريبة من المياه الجارية	كوفية: منديل يلف به الرأس. كوب: إبريق صغير بلا عروة. دينار: قطعة نقد فضية عند الرومان بركان: ابن جوبيتر سيد آلهة الرومان القدماء رصيد: الباقي بعد تصفية الحساب قميص قنديل قنطار قنصل

إسكلة: ميناء من موانئ البحر المتوسط في البلاد التي كانت خاضعة لسلاطين تركية.

القفان: الأمين، وهو معرب أصله قبَّان، وهو الرئيس الذي يتبع لأمر الرجل ويحاسبه، ولذلك سمَّي الميزان قبَّانًا، والقبَّان عند اللاتين: ميزان لأشياء ثقيلة.

بارجة: سفينة حربية، دخلت هذه الكلمة لغتنا بواسطة التركية.

دومينو: لعبة معروفة، لباس أسود كان يوضع على الرأس عند تناول القربان المقدس.

بعض ما أخذه العرب عن الهنود:

إن معظم ما استوعبه العرب عن طريق الهنود من النّبات والسيوف والعقاقير والطيوب والمنسوجات القطنية والأحجار الكريمة، أخذوا مسمّياته منهم مباشرة بطريق تبادل السلع والمنتوجات والمعاملات التجارية، أو عن طريق الفُرس الذين كانوا بمثابة وسطاء بين العرب والهنود.

من الكلمات الهندية الدخيلة على اللغة العربية:

الأترج - أرز - بهار - توتياء - بنج - خيزران - زنجبيل - ساسم (نوع من شجر الجبال)- سكّر - سمهري - شطرنج - شنكل - شيت (نوع من النسيج)- صندل - طاووس - طباشير - طن - عاج - فانيد (نوع من الحلواء وقيل إنه بالفارسية)- فلفل - فنجان - فوطة - فيل - قرفة - قرنفل - قماري (عود يتبخّر به)- قنا (للرماح)- قند (قصب السكر)- كافور - كركدن - ليمون - مسك - النردين (السنبل الهندي)- نارنج - النمط - النارجيلة - هيل أو هال - ورس - شيح (نوع من الشجر)([3]).

ما أخذه العرب من اليونان، أو أكثر الكلمات المقتبسة عن اليونانية:

لم يفتح العرب بلاد اليونان، بَيد أن كثيرًا منهم خالطوا مع مرور الزمن كثيرًا من علمائها وفلاسفتها وقرأوا مؤلّفاتهم في لغتها الأصلية أو مترجمة عن السريانية، وقد برز منهم الفارابي المتوفى سنة 951م، والذي طالع جميع كتب أرسطاطاليس ونشرها مع كتب أفلاطون لمعاصريه وشرحها لهم، ثم ابن سينا (980م-1037م) واضع كتاب الشّفاء في ثمانية عشر مجلدًا.

وفي الحقيقة إن صلة العرب باليونان أو بالروم البيزنطيين تعود إلى ما قبل الميلاد بنصف قرن تقريبًا، وذلك عندما احتلّ الروم مصر وسورية وفلسطين وقسمًا من العراق، هذا الاحتلال الذي استمر حتى الفتح العربي الإسلامي.

وكان لهذه الصلات آثار مباشرة على اللغات، فقد انتشرت اليونانية إبّان هذا التاريخ في حواضر هامّة كالإسكندرية وإنطاكية واللاذقية وصور ودمشق والقدس وآفاميا (قرب حلب).

وكان انتشارها واضحًا على المستويين الديني والفلسفي، ثم ما لبث أن قوي وجود اليونانية في بلاد الشام، خاصّة بعد دخول أمراء الغساسنة من كل جهة في المسيحية، وبناء على ما تقدم فإنه من الطبيعي الاعتقاد أن ألفاظًا يونانية كثيرة قد دخلت العربية، لكنّ التدقيق في المصادر والمراجع أكدَّ أن الأمر لم يكن كذلك، فالدخيل من اليونانية لا يكاد يُذكر أمام ما أُخذ عن اللغة الفارسية([4]).

يتبع =

---

[1] - نفس المصدر: ص 172- 180.

[2] - د. مسعود البابا، ما أخذه العرب من اللغات الأخرى: ص73و74؛ غرائب اللغة العربية، رفائيل اليسوعي: ص277إلى 280.

[3] - مجلة التراث العربي، عدد 71 و72؛ د. مسعود البابا: ص 72.

[4] - المصدر نفسه، عدد 71 و72؛ د. مسعود البابا: ص 72 و73.

.

تتمة مقال - الدخيل في اللغة العربية

اليونانية في اللغة العربية:

أما قنوات تسرّب الدخيل اليوناني إلى العربية فهي اثنتان: إما اليونانية مباشرة، أو عن طريق السريان الذين كانوا أكثر صلة روحية وسياسية باليونان، وكانت علاقتهم بالعرب أقدم وأتمّ وهي ترجع إلى ما قبل الفتح العربي، وقد يكون هذا الدخيل اليوناني موروثًا لغويًا تناقله الناس بعد هجرهم الحديث باليونانية في مصر وبلاد الشام إثر شيوع العربية([1]).

ومعظم الدخيل المأخوذ عن اليونانية يدور حول الأمور الماديّة والإدارية والدينية، وبعضه يشير إلى الحياة والعلوم العقلية والطبيعية والبحرية، ومن هذه المسميات:

إبليس - أبنوس - إنجيل - أخطبوط- أبو قلمون (طائر)- أثير - إزميل - أسطول - أسطقس (العنصر)- أسطورة (ومنها في الإنكليزيةhistory- وفي الفرنسيةhistoire بمعنى التاريخ) - اسطنبول (ومعناها في الأصل إلى المدينة)- إفريز - إقليم - إسفنج - إكسير - برنس - بقدونس - برقوق - بوق - بطاقة - بيطار - ترياق - كوبري - درهم - دكّان - دمقس - ديماس - رفاس - زبرجد - زنار - سندس - طلسم - فانوس - فنار - فندق - قارب - قانون - قرطاس - قنبيط - قصدير - قفّة - قلم - قمقم - قنّب - قنينة - كتّان - كوب - كورة - كيمياء - لغم - مرهم - ملوخية - ناموس - نقرس - يانسون - إبرشيّة - أرثذوكس - أرخبيل - ارستقراطية - أسطرلاب - أسقف - أطلس - ألماس - أوقيانوس - جغرافية - خريطة - دلفين - زخرف - فردوس - فسيفساء - فلسفة - فلّين - مُصطكى (علك)- موسيقى - ناووس - هرطقة - ياقوت - بطرك - بطريق - دينار - زيزفون - قولنج.

وإليكم جدولاً ببعض الكلمات اليونانية الدخيلة إلى العربية في جدول منفرد مع المعاني التي ترمز إليها([2]):

إبريز: ذهب خالص	بال: حوت بحري كبير جدا.
إبليس: نمام كاذب	أطلس: مجموعة خرائط جغرافية.
أخطبوط: ذو ثمانية أرجل	ترياق: دواء مضاد للسم.
أرثذوكسي: صحيح الإيمان	بيرفير: أرجوان- Porfira.
أردب: نوع مكيال	بطاقة: لوح رقيق للكتابة -Pitakion.
أسطرلاب: آلة فلكية	بيرون: تاج أسقف- Virriyon
أسطورة: حكاية	ترغُلة: حمامة كبيرة- Trighon.
أفشين: صلاة	تيفوس: مرض معد-Tifos.
أقّة: حجم- كتلة	خِرص: حلقة الذهب- Khricos.
إقليد: مفتاح	خلقين: مرجل كبير- Khalkiyon
باسيليق: عرق عند المرفق	دُرَاقِن:.نوع خوخ- Dhorakinon.
باميا: نوع بقلة.	دفل: غار- Dhafni.
أثير: مادة منتشرة في الفضاء.	تراخونا: نوع مرض في العينين- Trakhona

برنس: ثوب عريض الكمين يلبس فوق سائر الثياب-.Virros.

كلمات مقتبسة من التركية:

منذ أن انتصر السلطان سليم الأول على المماليك سنة 1516، واستولى على سورية ولبنان وفلسطين ومصر وبلاد ما بين النهرين، منذ ذلك التاريخ وحتى زوال الدولة العثمانية سنة 1918م بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى واندحار الفلول التركية أمام قوات الحلفاء، بقيت معظم الدول العربية خاضعة لسلطانهم وسيادتهم المطلقة، وكان أن تسنى للغتهم أن تنفذ بقدر يسير من ألفاظها ومسمّياتها إلى اللغة العربية الفصحى، خاصّة في الإدارات الحكومية، ودخلت مئات الكلمات التركية إلى اللغات العامية العربية.

من هذه الكلمات مع معانيها([3]):

بك: سيّد أمير، bey - خاتون: امرأة شريفة الأصل - خان: أمير، سيّد - بكرة: آلة مستديرة لرفع الأثقال - قاووق: نوع قلنسوة طويلة - قلاش: محتال - بوغاز: مضيق في البحر بين ساحلين - وجاق - موضع إيقاد النار للتدفئة - بيرق: راية - ترسانة: مستودع أسلحة - خاقان: ملك - الأتابك: الوالد أو الأمير وهي مؤلفة من (أتا) أي أب الأب أو الشيخ المحترم ومن (بك) الأمير.

أرسلان: الأسد - الإنكشارية: الجيش الجديد - الأورطة: الطابور أو فئة من الجند - أيبك: أمير الجند وهي مؤلفة من (أي) القمر و(بك) الأمير - الآغا: الأخ الكبير أو السيد - البنديرة: في التركية والأسبانية والطليانية: معناها الراية الأجنبية.

البكباشي: تركية من بك وباشا، رئيس الألف، وهي رتبة عسكرية عثمانية استعملت في الجيوش العربية.

الجلبي أو شلبي: ذو نبل وفضل، أو بمعنى سيّد وخواجة - صاية: زي من الجوخ - الخيش: نوع من الكتّان - الشوشرة: التحيّر والاضطراب - السنجق: العلم أو الراية - يازجي: كاتب - دوزن العود: شد أوتاره المرتخية، آلف الأصوات - طغراء: كتابة مشتبكة الحروف - وطاق: خيمة كبيرة مزينة لأكابر القوم - القايق: القارب الصغير - بِكلة: مشبك - جامكية: جمع جوامك، مرتّب خدم الدولة في العساكر والموظفين - قشلة: معسكر - القرمة: نوع من الخط ومنه القارمة، اللافتة - النيشان: العلامة التي تنصب للتدريب على الرماية وتطلق على الشارة والشعار الذي يوضع على صدور المحاربين والمتفوّقين.

من الكلمات العبرية الدخيلة على اللغة العربية([4]):

لم يكن للغّة العبرية تأثير كبير على اللغة العربية، لذلك ظلّ قاموسها بمنأى عن تفاصيل هذه اللغة وأحكامها، ولم يندمج سوى القليل من الألفاظ التي تشير إلى أمور اليهود وقضاياهم الدينية.

من الألفاظ العبرية الدخيلة:

آمين: في الحقيقة، فليكن هذا amen - إجّاص: eggas - تابوت: صندوق خشبي، صندوق teba - حاخام: كاهن يهودي، رجل عاقل فيلسوف، Haham - حجّ: زيارة مكان مقدس، عيد hag.

شاش: نسيج من قطن، chech - عنصره: عيد، محفل، asara.

قدّوم: فأس النجار ذات حديدة ملتوية، qardom - تلمود: مجموعة قديمة لشرائع اليهود مع آرائهم وتقاليدهم وعاداتهم، (تعليم) Talmoud.

توراة: شريعة، تعليم - جَدَث: قبر: gadich - جلخ: جلخ السكين، حدّده، galah - هللويا: صيحة فرح في الصلوات المسيحية، سبّحوا لله، halloulouyah - يوبيل: صيحة فرح، رنة بوق، yobel.

كلمات مقتبسة من لغات مختلفة أخرى:

من الأسبانية: بطاطة - تَبغ - تنباك - ريال - البندیرة.

من الإنكليزية: روم: وهو نوع مشروب كحولي - شك - فلم.

من الألمانية: إفرنج (أهل أوروبة ما عدا تركيا)- توتيا (معدن الزنك) زنك (معدن معروف) - غرش.

من الحبشية: بغل - جلباب (قميص أو ثوب واسع)- حواريّون (رسل السيد المسيح)- خيمة - دملوج (سوار)- طحن (طحين) - محراب (صدر البيت).

من الفرنسية: برلمان - بروتستانتي - بكالورية - تلفزة - جنرال - دكتور - راديو - طنّ - مارشال - ماسوني - مليار - مليون - كيلو.

من الإيطالية: بارون (لقب شرف)- برميل - بندقي (ثوب كتان رقيق)، مدينة في البندقية - بنك - بورصة - شوكولاتة - صابورة (ما يوضع من الثقل في قعر السفينة لئلا يميل أحد جانبيه)- غليون (نوع سفينة شراعية كبيرة)- فرنك (قطعة نقد فرنسي)- كمبيالة - مالاريا (مرض معروف)- طلمبة (مضخة ماء)- سقالة وهي نفسها أسكلة في التركية (رصيف الميناء البحري)([5]).

خاتمة:

بعد هذا العرض السريع والمتواضع والموجز لبعض ما استوعبته لغتنا العربية العالمية في تاريخها الطويل ومسيرتها الحافلة، نسجّل ما يلي:

1- إن ما أُخذ ويُؤخذ من مصطلحات وألفاظ أجنبية لا يشكّل أدنى خطر على مستوى ومستقبل اللغة العربية، وقد أقدم اللغويون على جواز الدخيل للضرورة، بُغية اللحاق بركب الحضارة والتطوّر اللذين يغزوان العالم بأسره اليوم، ومن غير الجائز أن نبقى بمعزل عن هذا الجديد، فالعولمة الثقافية التي تحترم حرّية الشعوب تنشد نقل المستجدات والاختراعات في شتى الميادين إلى كل مكانٍ في العالم، بواسطة اللغات ومصطلحاتها ومسمّياتها، فالثروة اللفظية العربية، وتماسك قواعدها، أغنياها عن أن تأخذ من اللغات الأخرى الصّفات والتراكيب، واقتصرت على أخذ المسميات الماديّة، لقد استطاعت لغتنا أن تهضم وتتمثّل ما أخذته بغير عسر أو مضاعفات تهزّ بنيانها المتين.

2- لقد دلّ هذا الاستيعاب من اللغات الأخرى على عظمة التجربة الإنسانية عند العرب، وعلى عمق صِلاتهم وعلاقاتهم بالأمم المجاورة في ميادين الحياة كافة، خاصّة في أمور العلم والتجارة والحروب وعلاقات الجوار بغير تعصّب أو انكفاء على الذات، أو تخوّف من المؤثرات الخارجية، كما دلّل على قدرة اللغة العربية ونجاحها الباهر في استيعاب مظاهر الحضارات الأخرى، وما لها من مسمّيات ومصطلحات دون حرج أو خوف.

3- إن الدخيل الذي استوعبته العربية أمدّها بثروة لغوية رحبة، وقاموس من الألفاظ غنيّ وهام، وجعلها تستلهم المعاجم وكتب التراث العربي، مما أغنى تجاربها الفكرية والحضارية.

4- إذا كان للمتأمّل أن يتساءل عن هذا الدخيل الذي اقتبسته العربية عن أمر كثرته وتنوعه، فليتساءل قبل ذلك عن أثر اللغة العربية في اللغات الأخرى، وعن مدى انتشار العربية والكتابة بها في كلّ مكان على الكوكب الأرضي، وقد بُيِّن ذلك في الموضوع السابق الذي تحدّث عمّا أخذته الشعوب الأجنبية من اللغة العربية.

انتهى

---

[1] - مجلة التراث العربي، عدد 71 و72 (تموز 1998م)، مقال بعنوان: ما أخذه العرب من اللغات الأخرى، د. مسعود البابا: ص72 و73.

[2] - الأب روفائيل اليسوعي، غرائب اللغة العربية: ص 251إلى 258.

[3] - غرائب اللغة العربية: ص 272 إلى 274؛ مجلة التراث العربي: ما أخذه العرب من اللغات الأخرى د. مسعود البابا: ص74 - 77.

[4] - غرائب اللغة العربية: ص211 إلى 213.

[5] - نفس المصدر: ص 284-285.

الهوامش

* أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية في صيدا.

رسالة النجف — العدد السادس

جامعة النجف الأشرف للعلوم الدينية · http://127.0.0.1:8000

جميع الحقوق محفوظة